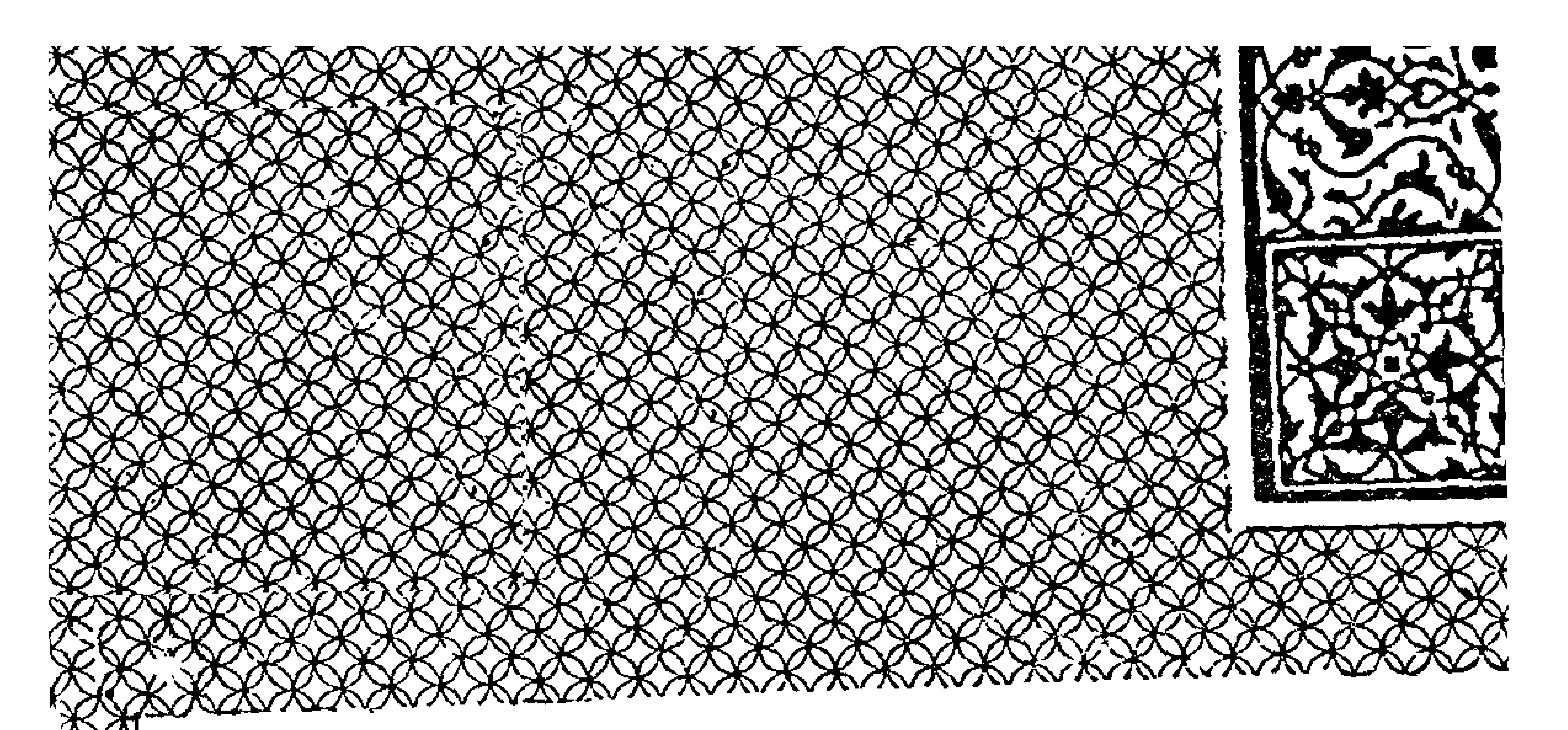

روايات عالمية
الملف الخطير
٥٠
مليما



اهداءات ٢٠٠١

المرحوم الشيخ/ احمد علي فايد

موجه اللغة العربية بوزارة التعليم

روايات
عالمية

٤ مايو ١٩٦٧
العدد ٤٢٩

الملف الخطير

تأليف : لين دايتون
ترجمة : السيد وفائى

■ مقــدمة

كان اتصـــالهما عن طـريق الخط التليفونى المباشر فى حـــوالى الساعة الثانية والنصف مساء . ولم يكن الوزير قد فهم نقطتين واردتين بالملخص المعروض عليه . ربما كان الافضل أن أقابل الوزير .

وكان مسكن الوزير يطل على ميدان ترافلجار . واتخذ كل منا مجلسه تجاه الآخر .

ـ خبرنى بكل ما تعلم عن هذا الموضــوع ، وعن القصة بكـل حذافيرها تفصيلا .

هل تدخن ؟

وبينما كنت أشعل سيجارتى ، كنت اتساءل فيما بينى وبين نفسى : « كيف أبدأ ؟ » فقلت له :

ـ لا أعرف كيف أبدأ ومن أين ... ان المستند الأول بالملف ...

فقاطعنى الوزير بحركة من يده قائلا : « دعنا من الملف . ما عليك الا أن تسرد على مسامعى روايتك الشخصية . ولتبدأ بأول لقاء لك بهذا الرجل ... » ثم تامل مفكرته مستطردا ، « جاى . نبئنى بأمره . »

ـ جاى . لقد أصبح أسمه الحركى بوكس فور .

ـ لقد اختلط الأمر على .

ثم اخرج الوزير مفكرته ودون الاسم بها . فقلت له :

انها لقصة محيرة • جد محيرة •

وأمن الوزير على ذلك قائلا : « تماما ، تماما » ، قبل أن أواصل كلامي :

ـ كنت في ليديريرز في حوالي الساعة ١٢ و ٥٥ من صباح يوم الثلاثاء عندما التقيت بجاي لاول مرة .

ليديريرز ! وماذا عن ليديريرز ؟

ـ ما أظن أنه سيكون من اليسير على أن أجيب عن كل سؤال وانا مستطرد في سرد قصتي . اذا لم يكن لديك مانع يا سيدى الوزير، فاني أفضل أن تدون أسئلتك كلما عن لك هذا ، ثم تستفسر منى عما تريده فيما بعد .

ـ أعدك بأنني لن أقاطعك .

وفعلا ، لم يقاطعني ، أو يحاول شيئا من هذا القبيل ، طوال الساعات التي تناولت فيها ايضاح ما غمض من جوانب هذه القصة .

- ١ -

لا يعنيني ما تقول ، اذ ان ١٨٫٠٠٠ جنيه (استرليني) مبلغ لايستهان به . فقد أصدرت الحكومة البريطانية تعليماتها الى بدفع هذا المبلغ للرجل الجالس الى المائدة الكائنة في ركن القاعة يتناول طعامه .

وجاى هو الاسمالذى تطلقه الحكومة على هذا الرجل ، ذى العينين الضيقتين والشارب الكث والحذاء الضخم . وكان يعرج في خطوته ، رافعا سبابته الى حاجبه بين الفينة والاخرى . وكنت أعرفه كما أعرف أيا ممن خالطتهم ، لأنني واظبت على رؤية فيلم له ، في عرض خاص بشارع شارلوت ، طوال شهر يوميا .

ولم أكن قد سمعت عن جاى من قبل . وكانت عطلة الأسابيع الثلاثة قد أسرعت بنهايتها . ولم أقضها فيما يستحق أن يذكر ، اللهم الا اذا كنت ترى في مراجعتي لمجموعة كتبي التاريخية العسكرية عملا يليق برجل مكتمل النمو .ولم يكن هذا هو رأى الكثيرين من أصدقائي .

واستيقظت من نومي وأنا أحدث نفسي قائلا ، « اليوم عمل ، » ولكنني لم أشعر برغبة في مغادرة الفراش . وكنت أسمع صوت تساقط الأمطار قبل ان أزيح ستائر النوافذ . انه شهر ديسمبر في لندن ـ شهر الرياح العاصفة والطقس الشديد البرودة . وأعدت اسدال الستائر مسرعا ، وجلست أفحص بريدى وأعد قدحا من الشاى ، قبل أن أرتدى ثيابي . وكان على أن أقضي أربعين دقيقة في انتظار احدى العربات . فقد كانوا لا يحبون أن يقبلوا عبر نهر التيمس جنوبا .

ولطالما كرهت أن اعين لسائقى العربات وجهتى ، « وزارة الحرب » ، فكنت أسألهم السير بى الى « هوايت هول » ، حيث أغادر العربة عند الباب الرئيسى ، ثم أستدير حول المبنى الى مدخله الكائن بشارع هورس جاروز . ووجدت سيارات الجيش فى هذا اليوم واقفة أمام المدخل . ودلفت الى الدهاليز الطويلة المظلمة ، بين صفوف من الأبواب ثبتت عليها بطاقات بيضاء بأسماء شاغلى حجراتها:

فهذا ميجور ، وذاك كولونيل ، وتلك معامل الكيمياء . وكانت الغرفة رقم ١٣٤ لا تختلف عن غيرها بخزاناتها ومكتبيها المتقابلين بجوار النافذة .

ورفع روسى ، الرجل الذى قدمت لمقابلته ، عينيه عما كان منشغلا بكتابته منذ دخولى الى الغرفة قائلا : « حسنا ، والآن » وسعل بعصبية . وكنا — روسى وأنا — نتبادل شعور الكراهية التى نشأت بيننا منذ بضعة أعوام . غير أن هذا لم يمنع أن نتحلى بأدب السلوك الشرقى فى علاقتنا المظهرية . ولما دعانى للجلوس عارضا على أن أدخن جلست شاكرا معتذرا عن التدخين .

وكان روسى ضابطا منتظما مرتبا ، فكان لا يحتسى الخمر بعد الساعة السابعة والنصف مساء ، ولا يتحدث الى سيدة الا وهو رافع قبعته . وكان أقنى الأنف ، رفيع الشارب ، ممشط الشعر ، أنيقا حسن الهندام .

ودق جرس التليفون الأسود . « أهو أنت يا عزيزتى ؟ » وكان روس ينطق بكل كلمة فى لهجة عادية ثابتة « بصراحة ، كنت سأفعل هذا » .

وكنت قد قضيت ثلاثة أعوام فى عملى بالمخابرات الحربية .وكان روسى صورة طبق الاصل من العاملين بالمخابرات الحربية . وكان سعيدا بعمله هذا ، قرير العين بما يفرضه عليه عمله من قيود . ولقد قدر لى أخيرا أن أتحرر من كل ذلك . من خدمتى بالجيش ، ومن عملى

بالمخابرات الحربية ، ومن اتصالى بروس ، بعملى المدنى الجديد فى احدى وحدات المخابرات الهامة .

ـ حسنا ، سأتصل بك تليفونيا اذا ما اضطررت للتخلف ليلة الخميس .

وتسمعت الصوت الآخر على الخط يقول : « هل أنت مستعد لكل شيء ؟ »

وبعد أن انتهى روسى من مكالمته ، بدأ حديثه معى . وقد حرصت على أن أوليه كل انتباهى . قال لى وهو يشعل غليونه .

ـ اذن فستعمل بالجهاز السرى !

ولم يحاول أن يخفى امتعاضه ، فقد كان الجيش لا يحب هذا الجهاز ولا العاملين به ، وقد أصبحت منهم . ولن أحدثك بكل ماقاله روسي ، لانى أرى في معظمه سرا من الاسرار تضمنته ملفاته .

وكان معظم العاملين بوزارة الحرب ، وبالذات رجال المخابرات من زملائى ، قد سمعوا بأمر هذا الجهاز السرى (ووك.نى) ، وبأمر رجل يسمى دالبى . وكان دالبى مسئولا أمام مجلس الوزراء رأسا . وكان بديهيا أن تنفث عليه ، هذا الاتصال المباشر ، وحدات المخابرات الاخرى ، وتدأب على معارضته ومهاجمته . وكانت سلطة دالبى لاحدود لها ، شأنه فى ذلك شأن كل من يتولى مثل هذا العمل . وكل من ألحق بالعمل معه ، أستبعد اسمه من الجيش ومن سجلات وزارة الحرب لدواعى تتصل بمصلحة العمل الجديد .

وراجعنا معا كل ما اتصل بنشاطى أثناء عملى بالمخابرات الحربية طوال هذه السنوات الثلاث ، وكان لايفتأ يردد أسفه على حرمان المخابرات من عملى بها ، وحسده لمستر دالبى ان استطاع أن يضمنى الى جهازه .

وكانت مكاتب هذا الجهاز الذى يتولى رئاسته دالبى ، كائنة باحدى بنايات شارع خلفى طويل من الشوارع المحاذية لشارع أكسفورد وكان هذا هو كهف دالبى كما يطلقون عليه . وارتقيت الدرج الى الطابق

الثـــالث ، حيث دخلت محييـــا أليس التى كانت تحتسى قـــدحا من النسكافيه ثم عرجت الى غـــرفة خلفية ، حيث التقيت بتشـــيكو الذى كان يسر لرؤياى دائما . وكان من حرس الفرسان قبل أن يلتحق بالعمل بهـــذا الجهاز ، طويل القامة متوقد الذهن ، بادى الثراء •

واجتزت الدهليز الى الدرج الخلفى ، لأهبـــط الى قاعة عـــرض الافلام ، حيث كان يجب أن أتواجـــد بها يوميـــا فى تمام الســـاعة التاسعة وأربعين دقيقة صباحا . وكنت أتجه رأسا الى المقعد رقم ٢٢ الذى خصص لى .

ويبدأ العرض بهذه الكلمات جاى . ليدز . وارين ٣ . (وارين ٣ اشارة الى الامر الذى صور الفيلم بمقتضاه) . وتظهر صورة جاى على الشاشة ، وهو يسير بين حشد من المارة . وكان شاربه العلامة المميزة له . ولاحظت أن عرجـــه لايعجزه عن متابعة ســـيره وســـط الازدحام . ثم شاهدت جاى فى صحبة زميل اسمه الحركى « هاوس مارتن » . وكان طويل القـــامة ، وسيما ، يرتدى معطفا من صـــوف الجمل . كما كان أشيب الفودين متموج الشعر ، يتحلى بالكثير من الخواتم الذهبية ، وتنفرج شفتاه عن ابتسامة لايتغير طابعها .

وكان تشيكو هو الذى يتولى عرض الافلام ، مرددا نظرية دالبى « اعرف عدوك » بين لحظة وأخرى . وكان يعتقد أنه على جميـــع العاملين معه أن يتعرفوا على جميع نواحى حياة الجاسوسية ، حتى تتهيأ لهم خير الفرص للكشف عما يجول بخواطرهم •

وكان دالبى من المدرسة الانجليزية بكل معنى الكلمة ، ومن هذا الطراز من الرجال الذين يوفقون بين واجبهم وبين الدعة والراحة • وكان طويل القـــامة ، أشقر الشعر ، يرسل شاربه حينا ويزيله حينا • ولم يكن له شارب حينذاك • سألنى وهو جالس الى مكتبه قائلا :

ـ لعلك مرتاح الى عملك معنا !

ـ لقد حضرت الى هنا بذهن صـــاف وقلب نقي . وها أنا

أقضي من يومي ثماني ساعات في نوم عميق . انني موظف مخلص مجد ، وسأبذل أقصي ما في وسعى لاكون جديرا بثقة رئيسي ورعايته .

ـ هل تظن أنه قد آن الأوان لتكليفك بمهمة خاصة ؟

ـ هذا اذا لم تكن تتطلب تعليما كلاسيكيا .

ـ عليك أن تصدع بما تؤمر ، دون شكوى أو تذمر .

وكان جادا في كلامه ، يضرب الارض بقدمه والمكتب بقبضته . ثم استطرد قائلا :

ـ لقد اجتمعت بكبار رجال المخابرات صباح اليوم . ان وزارة الداخلية في قلق ممض بسبب تكرار حوادث اختفاء كبار علماء الكيمياء الحيوية .

ـ هل من جديد ؟

ـ هذا الصباح . لقد غادر أحدهم منزله في الساعة السادسة وخمسة وأربعين دقيقة صباحا ، ولم يصل الى المعمل بعد .

ـ أهو اخلال بالواجب ؟

وأصدر دالبى أمره الى أليس عن طريق التليفون الداخلي : « افتحى ملفا جديدا باسم حركى لحادث هذا الصباح . » وكان هذا هو أسلوب دالبى في اصداره لأوامره ، أسلوبا مقتضبا محددا . وكنا نفضل هذا الاسلوب عن غيره من أساليب وزارة الحرب الطويلة المعقدة . وسمعت صوت أليس الذى لم أتبين منه شيئا ، ثم سمعت دالبى يجيبها قائلا : « الى الجحيم برسالة وزارة الحرب هذه . افعلى ما أمرتك به » . وبعد لحظة صمت قصيرة ، اتصلت به أليس لتبلغه برقم الملف وبالاسم الحركى « رافن » .

وبعد أن فرغ دالبى من ذلك ، التفت الى قائلا : « انهم يسدلون سترا من السرية على اختفاء رافن ، ولكننى قلت لهم أن وليم هيكاي سيحصل على صوره الفوتوغرافية قبل منتصف النهار .

تأمل معي هذه » . ووضع دالبي فوق مكتبه خمس صور فوتوغرافية صغيرة . ولاحظت أن رافن في نهاية الحلقة الرابعة من عمره ، أسود الشعر غزيره كثيف الحاجبين ، عظمى الأنف . ثم استطرد معلقا : « بهذا يصبح العدد ثمانية ، اختفوا في ستة أسابيع ونصف » .

ـ من المؤكد أن وزارة الداخلية لم تكلفنا بمساعدتها .

ـ كلا . ولكننا اذا ما عثرنا على رافن ، فسيعمد وزير الداخلية الى تسريح ادارة مخابراته المرتبكة ، ويعهد الينا باختصاصها وتتسلم ملفاتها .

ـ اذا ما عثرنا عليه ! وكيف نبدأ هذا ؟

ـ كيف تبدأ أنت ؟

ـ ليست لدى أية فكرة عن ذلك . قد أبدأ من العمل ، أولى من الاتصال بزوجته ، التى قد لا تعرف الكثير عما ألم به أخيرا . وقد أتصل بمدير البنك الذى يتساءل من أين له كل هذا ؟ . وقد أمسك بطرف الخيط من كلمة تصدر عن أحد زملائه من العلماء .

ورمقنى دالبى بعينين فاحصتين . ثم نهض عن مقعده واتجه الى الخريطة الكبيرة المثبتة الى الحائط حيث لحقت به قائلا : « أوتظن أن جاى مسيطر على الموقف ؟ » وظل دالبى محدقا بخريطة أوربا لحظة ، ثم أجابنى ، « أنا واثق من هذا كل الثقة . » ولاحظت أن هناك خمس علامات لمناطق تمتد من فنلندا الى بحر قزوين مؤشر عليها بالقلم الاسود . كما لاحظت أن هناك بقعتين فى سوريا مثبت عليهما العلم الاحمر .

وسمعت دالبى يقول : « ان لجاى دخلا فى كل حركة غير مشروعة تقع في نطاق هذه الخطوط السوداء . كل حركة لها أهميتها . يجب علينا قبل أن يصل الى هذه الحدود ... » ثم لم أستطع أن اتبين شيئا مما كان يتمتم به وهو مستغرق في أفكاره ، يدق بسبابته على الخريطة . وأخيرا التفت الى قائلا :

ـ « ان الامر ليس أمر اخلال احد علماء الكيمياء الحيوية بواجبه .

كما أنه ليس كما تصوره ألصحف ، عملية اختطاف تحت تهديد مادى في صورة هجرة مقنعة . أو هى هجرة كيميائى عادى كان يبيعهم أسرار عمله طوال هذه السنين . كلا . انها أكبر وأوسع نطاقا من ذلك . وانها صورة ناطقة لاهمال رجال وزارة الداخلية الجسيم ، الذين كان من الواجب عليهم أن يمنعوا وقوع شيء من هذا القبيل ، بدلا أن يثيروا الدنيا ويقعدوها بعد وقوعه . ألست معى في أنه لو تيسرت لنا جميع امكانياتهم لكنا جنبنا البلاد الكثير مما يحدث »

ـ أعتقد أنه كان بوسعنا أن نقوم بالكثير .

وسره منى هذا الرأى . وبعد أن قدم الى سيجارة وأشعل لنفسه أخرى قال :

ـ « ومن هذا يمكنك أن تدرك مدى ما لهذه القضية من أهمية . انها ليست بالقضية العادية .

ـ « أجل . ويجب ألا ندخر وسعا فى بلوغ غايتنا بكل وسيلة ممكنة » .

وأطرق دالبى برهة . ثم واجهنى قائلا : وهو يضغط على مخارج الكلمات بين شفتيه ، متمهلا عند مقطع منها « اذهب واشتر لى رافن هذا » .

ـ من جاى ؟

ـ من أى من يكون ـ اننى رجل واسع الأفق .

ـ فى حدود أى مبلغ ؟

ـ « ان جاى رجل واسع الحيلة . وانه لمحيط بكل الظروف مقدر لخطواته ، وما أراه الا محتفظا برافن هذا لفترة ما حتى تهدأ العاصفة فاذا ما استطعنا أن نتصل به أثناء هذه الفترة وعرضنا عليه عرضا مناسبا ... وبعد أن توقف دالبى عن متابعة الكلام قليلا وأطرق مفكرا استطرد قائلا : « ... لنقل ١٨٫٠٠٠ جنيه ، وما عليه الا أن يعين لنا مكان وجوده ـ دون أن نوجه اليه أسئلة ما . »

ـ ثمانية عشر ألفا ؟

ـ ويمكنك أن ترفع المبلغ الى ٢٣٫٠٠٠ جنيه ، حسبما يتراءى لك . على أن يكون الدفع بعد التسليم عن طريق أحد البنوك السويسرية . وأريد رافن حيا ، لم يمسسه سوء .

فليكن . وشعرت فجأة بجسامة المهمة الملقاة على عاتقى . وقدرت ما لعمل هذا الجهاز الذى ألحقت به من أهمية تتناسب مع ما يغدق عليه من أموال . ووجدتنى أتساءل قائلا : « وهل أبدأ بالبحث عن جاى ؟ » ثم شعرت بعد أن ألقيت بسؤالى ، بأنه لم يكن ثمة داع لتوجيهه ، لولا ما كنت أشعر به من هيبة ووجل .

وبعد أن اتصل دالبى بأليس ليستفسر منها عن آخر الأنباء بشأن تحركات جاى ، التفت الى قائلا :

ـ كان آخر مكان شوهد به جاى ، مقهى ليديريز ، فى تمام الساعة الثانية عشرة والدقيقة العاشرة . فلتبدأ من هنا .

فنهضت متأهبا للانصراف ، ولكنه استوقفنى قائلا :

ـ مهلا ، فثمة أمران أريد أن أوضحهما لك . أولا ، أنه مصرح لك بمبلغ ١٢٠٠ جنيه سنويا كنفقات خاصة . وثانيا ، لا تتصل بى اذا ما ساءت الامور ، لأننى سأتجاهل أمر ما تحدثنى به .

ـ ٢ ـ

واجتزت شارع شارلوت في طريقى الى سوهو ، في صباح يوم من أيام شهر يناير الساطعة شمسها . وسرت على مهل حتى بلغت مقهى ليديريز في الوقت الذى حددته لنفسي .

وهناك وجدت جاى ، ببشرته العاجية ، وعينيه الضيقتين ، وشعره الفزير . وكان يجلس الى مائدة في مواجهة مدخل القاعة .

وليس من شك في أنه رآني عند دخولي . ولم أكن قد رأيته من قبل، ولكنني عرفته بمجرد أن وقع نظرى عليه . عرفته من كثرة ما رأيته في العرض الخاص طوال شهر بأكمله . لقد كنت أعرف كل شيء عنه ، اللهم الا كيف أوفق معه في اقناعه بأن يبيع لى عالما في الكيمياء الحيوية بمبلغ ١٨٫٠٠٠ جنيه .

واتخذت لى مجلسا بجوار المدفأة . وفي الناحية الأخرى من مائدة جاى ، وقع نظرى على وجه هاوس مارتن الوسيم ، زميله في الفيلم الخاص الذى كنت أتابع مشاهدته بشارع شارلوت واشعلت سيجارة ، ورحت أنفث دخانها متأملا حلقاته . ولاحظت أن هاوس مارتن يميل على المائدة ويهمس في أذن جاى ثم يتطلعان الى ناحيتى .

وأقبلت الساقية ، فسألتها أن تأتينى بقدح من الشاى وقطعة من فطيرة التفاح . وبعد أن فرغت من تناول طعامى ، رحت أبحث في جيوبى عن بعض البطاقات التى كنت أحتفظ بها لهذه المناسبة . ولكننى لم أجد من بينها ما يقنعنى بصلاحيته ، فنهضت الى حيث يجلس جاى ، وحييته مقدما نفسي اليه ، «بيميش ، ستانلى بيميش» فأومأ جاى برأسه . ثم استطردت قائلا ، « أو يمكن أن ننتحى جانبا لنتحدث على انفراد ؟ اذ لدى عرض مالى أريد أن أطلعك عليه » . وما كان من جاى الا أن أخرج حافظته على مهل ، وقدم لى منها بطاقة كتب عليها « هنرى كاربنتر ـ استيراد وتصدير » . ثم مد يده ليتناول البطاقة ويعيدها الى حافظته الفخمة . وبعد أن تأمل ساعته اضطجع في مقعده قائلا :

ـ اذن فستدعونى للغداء ؟

ـ لا أستطيع ذلك . لأن مرتبى متاخر صرفه ، ولم تعتمد حسابات نفقاتى الا صباح اليوم .

ودهش جاى من صراحتى هذه ، وسألنى قائلا :

ـ وكم تبلغ نفقاتك المعتمدة ؟

ـ ألف ومائتان .

ـ في السنة ؟

ـ أجل .

ـ هذا قليل . فلتطالبهم برفعه الى ألفين على الأقل .

ـ انى فاعل ذلك لامحالة .

ولم أشأ أن أعارض جاى منذ البداية ، وان كنت لا أعتقد أن دالبى سيوافق على شيء من هذا القبيل .

وانتهى الأمر بأن دفع كل منا قائمة حسابه ، ثم خرج ثلاثتنا الى شارع واردور ، وجاى يتقدمنا . وكانت الشوارع مزدحمة شأنها في ذلك شأن شوارع لندن الكبرى في هذه الساعة من النهار .

وواصلنا سيرنا حتى توقفنا أمام أحد الملاهى الكبرى . وتقدمنا جاى الى الداخل مبتسما اهذا مداعبا ذاك . ولاحظت أن المدير يتأملنى بعين فاحصة ، لأن مظهرى لم يكن ليتناسب مع مظهر الأثرياء من مرتادى حى الوست اند .

واغمضت عينى حتى تألفا الظلام . وفتحتهما لأجد على يسار الداخل قاعة بها حوالى الستين مقعدا ومسرحا صغيرا . وعلى مقدمة المسرح أبصرت فتاة بدينة في ثياب داخلية سوداء تنشد أغنية تناسب الساعة الثانية وعشر دقائق من بعد ظهر يوم ثلاثاء بوسط لندن .

وسمعت هاوس مارتن يقول ، ((سننتظر هنا)) ، وارتقى جاى الدرج القريب من اللافتة المكتوب عليها « بار باروسا ـ للأعضاء فقط)) بسهم يشير الى أعلى . وانتظرنا ـ ولم يكن لمن يرانى ليظن أننى مقدم على عملية تبلغ قيمتها ١٨٫٠٠٠ جنيه . وقرعت الطبول ودوت في القاعة الألحان الراقصة ، وتوالى ظهور الفتيات على خشبة المسرح ، ما بين البدينة والنحيفة ، والطويلة والقصيرة والمكتملة الثياب والعارية . ولاحظت أن هاوس مارتن جد مسرور بمشاهدة هذا العرض .

وأخيرا نهض عن مقعده معتذرا بالتوجه الى دورة المياه . وحاولت احدى الفتيات أن تبيعني برنامجا تذكاريا ، فاعتذرت شاكرا ، قائلا : انني أفضل ابتياع بعض لفافات التبغ مما تحمله معها . وبينما كنت أعاونها في البحث عما أريد ، سمعتها تقول لي ، « يحسن بك أن تعود من حيث أتيت . ولن تحصل هنا على شيء » . ثم قدمت لي ما أبقي من لفافات التبغ ، وأعطيتها ورقة من فئة العشرة شلنات . فشكرتني ولم ترد لي الباقي . ففهمت وشكرتها بدوري ، وانصرفت عني لتواصل مرورها بين صفوف المشاهدين .

وتلفت حولي وتأكدت من أن أحدا لا يراقبني . وارتقيت الدرج الى الطابق الاول حيث وجدت أن الباب الوحيد مغلق . فواصلت طريقي الى الطابق الثاني حيث وجدت لافتة سطر عليها « خاص – لموظفي الادارة فقط ». فدفعت الباب لاخطو الى دهليز طويل مشيت فيه على حذر . ووجدت به أربعة أبواب على يمين الداخل فقط . وفتحت الأول منها لأجد خلفه دورة للمياه . ووجدت على الباب الثاني لافتة مسطرا عليها « المدير » ، فطرقته قبل أن أفتحه ، لأرى أمامي غرفة مكتب مستكملة الأثاث وبها جهاز تليفزيون .

ولم يكن بالغرفة أحد . واجتزتها الى النافذة . وتطلعت منها لأجد رجلا بالشارع أمام عربة يد محملة بالفاكهة فعدت أدراجي الى الدهليز ومنه الى الباب التالي الذي فتحته لأجد أمامي حوالي العشرين فتاة شبه عاريات يستبدلن ثيابهن . ولم يبد عليهن أن اقتحامي عليهن خلوتهن قد افزعهن ، بل واصلن ماكن فيه من حديث وحركة . فأسرعت بغلق الباب ، واتجهت الى الباب الرابع والأخير .

وفتحته لاجد أمامي غرفة كبيرة مجردة من كل أثاث ، قد أحكم غلق نوافذها . وفي منتصف أرضية الغرفة ، ثبتت ستة ألواح من الزجاج السميك . ولاحظت أن الضوء ينفذ منها صاعدا من الغرفة السفلى . وتطلعت منها لأرى مائدة روليت مستطيلة . ولم يكن بالغرفة

أحد ، اللهم الا هذا الرجل الشاحب في حلته السوداء ، الممدد على المائدة الخضراء . وكأني به كان ، وهذا ما اتضح فيما بعد : رافن .

- ٣ -

وعدت أدراجي الى الدهليز ومنه الى الدرج هابطا الى الطابق الأول حيث عالجت بابه الذى وجدته مغلقا كما كان عند صعودى .

ولم أكن قد اتفقت بعد على شيء مع جاى . واذا ما كان هذا الرجل هو رافن حقا ، فأنا في حل من التصرف حسبما يتراءى لى . وهكذا أسرعت بالعودة الى الطابق الأعلى ومنه الى غرفة المدير مباشرة، حيث حملت الآلة الكاتبة التى كانت موضوعة على مكتبه ، وانطلقت بها الى الدهليز ومنه الى الغرفة الأخيرة ، حيث أودعتها أرضية الغرفة . وفي تلك اللحظة رأيت هاوس مارتن بالغرفة السفلى .

وهاوس مارتن رجل قوى البنية فارع الطول عريض المنكبين .

ورأيته يدفع رافن عن مائدة الروليت في سهولة ويسر ويتجه به صوب باب القاعة . وحينئذ ، رفعت الآلة الكاتبة وتركتها تسقط بكل ثقلها على أحد مربعات الزجاج الذى نفذت منه وهوت الى قاعة الميسر الكبرى حيث اصطدمت بمائدة الروليت ومنها الى أرضية القاعة . وقمت بنزع بقايا اللوح الزجاجى المحطم من حواف مربعه الذى تدليت منه قفزا الى مائدة الروليت . وفجاة توقف صوت الموسيقى الذى كان يملأ أرجاء المكان ، لأسمع صوتا يردد في المذياع ، « سيداتى وسادتى ، ان الشرطة تقوم بتفتيش المكان . نرجو الا يتحرك أحد من مقعده ... » وكنت في هذه اللحظة قد اجتزت قاعة الميسر الى الباب الذى خرج منه هاوس مارتن حاملا رافن . وهبطت الدرج الحجرى قفزا ، الى حيث وجدت بابين كتب على أحدهما « خروج

الطوارىء » . ففتحته قليلا لأرى أربعة من رجـال الشرطة في زيهم الرسمى واقفين على الرصيف . فأوصدت الباب وأعدت الكرة مـع الباب الآخر . وهناك وجدت ثلاثة رجال في منتصف العمر . ورأيت احدهم يفرغ محتويات جيبه في أحد الاحواض . وآخر يساعد الثالث في تسلقه لنافذة صغيرة . وعدت أدراجي لارتقاء الدرج الى باب كنت قد مررت به في هبوطى . ودفعته ، فتحرك ببطء لأنه كان ثقيـلا ، ونفذت منه الى زقاق مملوء بالأقفاص وعلب الكرتون . ووجدت أمامى بابا آخر ، دخلت منه لالتقى برجل في حلة السقاة سألنى وهو يحدجنى بنظرة فاحصة ، « هل تريد وجبة كاملة ؟ » فأجبته دون تفكير : « أجل » .

- فلتجلس ، اذ أننى لن أقـدم القهوة الا مع الطعـام . سآتيك بطعامك فورا .

وجلست . وأخرجت من جيبى احدى لفافات التبغ التى ابتعتها من الفتـاة بائعة البرامج . وعندئذ اكتشفت أن في جيبى شيئا جديدا عليه . فقد عثرت بعلبة سوداء من ورق الكرتون بها محقنة تحت الجلد ، وتبادر الى ذهنى ما قالته لى الفتاة ، « عد من حيث أتيت ، فلن تحصل هنا على شيء » . ترى ماذا كانت تعنى هذه الفتاة بقولها هذا ؟ وجلست أقلب الأمر وما استجد من أحداث على كل وجه .

- ٤ -

اتصلت تليفونيا بدالبى عن طريق الرقم السرى ، وأحطته علما بحقيقة الموقف دون الدخول في التفاصيل . ولاحظت أنه سر بما أخبرته به ورضي عن جميع تصرفاتي ، بصرف النظر عن النتائج ، التى يرى أنه مسئول عنها . وأنهى حديثه معي قائلا :

ـ سأعهد اليك بمهمة خطيرة فى الاسبوع القادم • وسأتحدث الى أليس بشأنها • وأريد أن تغير أوراقك فى هذه الفترة •

وعدت الى منزلى ، وأنا أفكر فى موضوع تغيير أوراقى الشخصية • إنه يعنى الكثير : صور فوتوغرافية ، ومستندات ، وبصمات أصابع ، الى آخر ما يتطلبه ذلك . فهناك مكتب عامر بالموظفين المدنيين بوزارة الحرب ، الذين ليس لهم عمل غير ذلك على مدار السنة . وتوجهت في يوم الخميس الى الغرفة الصغيرة في أعلى مبنى الادارة التى يرأسها مستر نيفينسون . وبين يدى هذا الرجل ومن يعملون معه ، تمر أوراق كل موظف له أهميته الخاصة في حكومة جلالة الملك .

وفي هذه الادارة يتغير كيانك وتتبدل شخصيتك ، وتصبح رجلا آخر بجواز سفرك وبشهادة ميلادك وبوثيقة زواجك ، الى آخر تلك الوثائق والمستندات . ويستغرق هذا أربعة أيام . واليوم يبدأ هذا معى ، مستر نيفينسون .

ـ ثبت عينيك فى آلة التصوير ، شكرا • وقع بامضائك هنا ، شكرا . وهنا ، شكرا . بصماتك هنا ، شكرا . وابهامك هنا ، شكرا . والآن جميع الأصابع معا ، شكرا . سنكون على اتصال بك ، الى اللقاء !

ـ ٥ ـ

وفي يوم الاثنين ، توجهت الى شارع شارلوت في الموعد المعتاد . ووجدت سيارة عند منحنى الطريق تجلس أليس الى عجلة قيادتها . وتظاهرت بأننى لم أرها ، ولكنها نادتنى ودعتنى لمرافقتها . وبعد أن انطلقت بنا السيارة سألتها :

ـ الى أين ؟

ـ لاستدراج رافن الى فخ • فيما أعتقد •

ولم أعقب بشيء . لأنني لم أجد ما أعقب به على اجابتها . فاستطردت :

ـ تأمل هذا • وناولتني لعبة من اللباد تشبه تلك التي رفضت شراءها في نادي العرايا منذ أسبوع . « هناك » . وأشارت بأصبعها بينما رحت أتأمل الكلب اللبادي بين يدي . ولاحظت أن بعض حشوه يبرز من رأسه ، فتحسسته في كل مكان منه . « لعلك تبحث عن هذا ؟ » ورأيت بيدها آلة فوتوغرافية صغيرة ، ورنت الى بنظرة ساخرة ، أم لعلها كانت تتأملني ساخرة أثناء بحثي وتأملي الدمية . فقلت :

ـ لقد كنت في منتهى الغباء ••

ـ حاول ألا تكون كذلك ثانية .

وتوقفنا في طريق جسر فوكسهول خلف سيارة روفر سوداء • وسلمتني أليس مظروفا كبيرا منتفخا مختوما بالجمع ، ثم فتحت باب السيارة وتبعتها . وتقدمتني الى السيارة الروفرحيث أجلستني بالمقعد الخلفي • وكان السائق مرتديا معطف البحرية الأزرق • وانطلقت بي السيارة الى المطار . وفي الطريق فضضت المظروف الذي وجدت به جواز سفر بادي القدم ، ومفتاحين ، ورسالة ، وثلاث صور فوتوغرافية صغيرة ، وتذاكر سفر جوية ، على طائرات بي ـ أو ايه سي بالدرجة الأولى . وحددت لي الرسالة مواعيد الطائرة ، ورقمها ، « ب . أ ٧١٢ . قيام من مطار لندن ٢٥ر١١ . وصول الى مطار بيروت الدولي ٠٠ر٢٠ • » وعن الصور الفوتوغرافية ورد بها : « الصور الفوتوغرافية : رافن . تحرق فورا » . ولم تكن الرسالة مؤرخة . وكان مرفقا بأحد المفتاحين رقم : « ٢٥ » . وبعد أن تأملت الصور الفوتوغرافية ، أحرقتها مع الرسالة .

وما ان وصلنا الى المطار ، حيث تحدث الى السائق لأول مرة

قائلا : ـ متاعك في الصوان المحجوز عبر البهو • وغادرت السيارة الى حيث وجدت الصوان الحديدي رقم ٢٥. ، وفتحته بالمفتاح المرقم الذى كان معى ، لأجد بداخله حقيبة جلدية سوداء واخرى زرقاء . وحملتهما عبر البهو للتفتيش عند الحاجز الجمركى . وبعد أن انتهيت من هذه الاجراءات ، ابتعت بعض الصحف والمجلات ، واتجهت الى الباب المؤدى لأرض المطار • ووقفت أشاهد بعض المسافرين وهم يودعون ذويهم . ووقع نظرى على روس في معطف للمطر . ولم أرغب في الالتقاء به ، وما أظنه الا أنه كان يبادلنى هذه الرغبة ، لولا أن الازدحام قد اضطرنا الى مواجهة كل منا للآخر . فأومأت اليه محييا .

وأعلن صوت الفتاة في المذياع أن الطائرة ب.أ ٧١٢. بسبيل الاقلاع . واجتزنا أرض المطار الى الدرج المتحرك لنصعد الى الطائرة. وكان مقعدى بجوار رجل بدين غليظ العنق بادى الغباء •

وانطلقت الطائرة بنا أخيرا . وبعد قليل أقبلت المضيفة تحمل الينا المشروبات . وعلمت من رفيق الرحلة أن اسمه جرافيل جيرتى. وتبادلنا الأنخاب . وكان من هذا الطراز المرح من الرجال ، الذى لا يفتأ يثرثر ، فاذا لم يجد كلاما ترنم بمختلف الألحان .

وأعلنت المضيفة قرب وصولنا الى روما ، قائلة : ان فترة التخلف بالمطار هى ٤٥ دقيقة ، ولمن شاء أن يبقى بالطائرة أن يبقى بها على ألا يدخن أثناء تموينها بالبنزين .

وعندما حلقت الطائرة في سماء المدينة الخالدة ، عرضت على جارى أن يجلس في مقعدى المجاور للنافذة لينعم برؤية أشمل . ونهضت متجها الى دورة المياه التى وجدتها ((مشغولة)) ... ووقفت أنتظر بالممشي الجانبى حيث تودع الأمتعة .

وهناك ، أخرجت حافظة رفيقى في السفر ، التى كنت قد التقطتها من بين ثنيات جيبه أثناء تبادلنا المقاعد فوق سماء روما .

ورحت أنقب بين محتوياتها التى عثرت من بينها على بطاقة أحد الأندية باسم هاريسون ، ب.ج.د. ، وبعض الصور الفوتوغرافيــة . وكان علي أن أسرع بتصــفحي لكل ما عثرت عليه قبل أن تكتشف المضـــيفة غيابي عن مقعدي وتعيدني اليه قبـل هبوط الطائرة . وكانت الصــور الفوتوغرافية الثلاث الأولى من صور الجوازات فى أوضاع مختلفة ، ولكنها كانت لرجل واحد عرفت فيه ضالتي رافن . أما الصـــور الثلاث الأخرى فكانت لرجل أسود الشعر ، مستدير الوجه ، كتب على ظهــرها (٥ر١١) ، مع بعض الأوصاف المميزة الأخـــرى . وتأملت الوجه المألوف ثانية . انني أعرف هاتين العينين . لقد رأيت هذا الوجه من قبل . ولطالما رأيته في المرآة وأنا أحتلق . ولاحت بخاطري في هذه اللحظة صورة جاري في مقعد آخر غير مقعده بجواري . صورته وهو جالس الى البار في نادي المرايا ، عندما وقع نظري عليــه في اللحظة التي قالت لي فيها بائعة السجائر : « عد من حيث أتيت » .

وأسرعت باعادة كل محتويات الحافظة الى مكانها منها ، وعدت أدراجي الى مقعدي بين احتجاج المضيفة لتأخيري في تثبيت حزام الهبوط . وألفيت جاري قد عاد الى مقعده ، كما لاحظت أن معطفي قد سقط فوق حافظة أوراقي . وانحنيت ألتقط معطفي وألقي بحافظة جيب جاري تحت مقعده . وما ان رفعت معطفي ، حتى شــاهدت قطعا دقيقا بظهر حافظة أوراقي . قطع محترف يعـرف ما هو فاعل . قطـع يكفي لالقاء نظرة على محتويات الحافظة . واعتدلت في مجلسي مختلسا النظر الى جاري الذي رأيت عينيه الباسمتين من خلال عدســات نظارته السميكة .

وما ان اســتقرت الطائرة بالمطـار ، حتى تركتهــا الى مكتب البريد واستبدال العملة قتلا للوقت . وهناك سمعت من يناديني قائلا : اهلا ، هاري .

ولم يكن اسمي حينئذاك هاري ، غير أنه من العسير على المرء

أن يذكر في عملي هذا ، متى كان هذا هو اسمه . واستدرت لأجد أمامي سائق السيارة الذى كان معى في لندن .

وكان يحملق فيما حولنا بعينين حذرتين فاحصتين . ومر براحته على جانب رأسه قائلا : « المقعد ١٩ .. »

« متعب » . بهذا أسرعت معقبا بلفتتنا المصلحية . ثم استطردت قائلا :

ـ والآن خبرني ، لقد « شرح » حقيبة يدى ».

ـ انه فاعل ذلك ما دام هنالك ما يدعو الى هذا بداخلها .

ـ أو فيها فعلا ما تشير اليه ؟

ـ كن آخر من يترك الطائرة فى بيروت . دع هذه لى ـ وحملق كل منا في الحقيبة ـ « لأحملها عبر الحاجز الجمركى » . وتركنى مودعا ، بعد أن علمت بأن رفيقى في السفر كان يدعى فاتسو .

وعدت لأستقل الطائرة ، ولكن فاتسو لم يعد اليها . ونمت ملء جفونى ولم أستيقظ الا بعد أن اجتازت بنا الطائرة ساحل لبنان . وما هو الا قليل حتى هبطت بنا مطار بيروت .

وبعد أن انتهيت من الاجـــراءات الجمركية ، أودعت حقيبة ثيابى احدى سيارات الأجرة ، وسألت الســـائق أن ينتظر . ثم أسرعت أرتقى الدرج الى حيث وجدت « سائق لندن » يحتسي قدحا من القهوة . وسلمنى حقيبة أوراقى ، ولفافة ثقيلة ، وزودنى بنظرة محذرة ، قبل أن يخبرنى باسم الفندق الذى سأقيم به بالمدينة .

ـ ٦ ـ

تآمرت المبانى الشاهقة على أن تحجب عنى مياه البحر الصافية، عند ماكنت أطل من بين شرائح الستارة المعدنية لنافذة حجرتى . ووقع نظرى عبر الطريق ، على رجلين بدينين ، يجلسان فى الناحية

الأخـرى منه ، يتضـاحكان وهما يحتسـيان « العـرقى » ليطفئـا ظمأهما في هذه الساعة من منتصف نهار شـديد القيظ . ووقفت أقطع الوقت بالتطلع الى الراحين والغـادين من مختلف الجنسـيات ، والى سيارات الأجرة المرسيدس التى لا تتفق بحـال ما مع مركبـات الترام العتيقة . وكانت أشعة الشمس تجـد طريقها الى الغرفة ٦٢٤ التى حجزتها لى الادارة ، لتشعرنى بحرارة الطقس بالرغم من جهاز التكييف الذى كان ينشط لكى يبدد آثارها . وكانت الغرفة ٦٢٤ ، مجهزة بكل ما يجعل اقامتى بها مريحة ـ من غرفة استحمام الى فريجيدير الى تليفون بجوار الفراش وآخر في غرفة الاستحمام.

وبعد أن استقر المقام بى ، وأعددت لنفسي قدحا من القهوة ، رأيت أن أتحرى أمر أمتعتى . ووجدت بعد فتح الحقيبة الخاصة بحاجياتى ، أن اليس لم تنس شـيئا ، وبدأت أحب عمـلى بهـذه الادارة . وفي حقيبة أوراقى وجدت صندوقا صغير الحجم ثقيـل الوزن من القصدير ، مكتوبا عليه «و . د . /٢١٣/٣١٠ . قنبلة .» اذن فهذا الصندوق هو ما كان يبحث عنه فاتسو . أما اللفافة التى سلمنى اياها « سـائق لندن » فكانت مظـروفا بداخله حقيبـة بهـا مسدس غير عادى مزود بخزينة للطلقات ومعه خمس وعشرون طلقة اضافية ، وجراب جلد للمسدس بحزام يتدلى من الكتف . وبعد أن فرغت من ذلك ، جلست أحتسي قدح القهوة وأستعرض ما قد أبلغ به من أوامر عاجلة : أوامر المحاولة الاخيرة للحاق برافن ، عـالم الكيمياء الحيوية ، قبل أن يصبح بعيداً عن متناول يدنا ، ويختفى بحيث لا نستطيع به لحاقا .

يتدرج الطريق الداخلى من بيروت صعودا الى الجبال ، بين القرى الغارقة بين أشجار الزيتون ، وكأنهـا تتشبث بهـا خشـية التدحرج على منحدراته . وتنظر الى أسفل ، فتجد خليج سانت جورج على مرمى البصر شمالا ، وتتطلع الى أعلى لترى قمم الجبال التى

اكتست بالثلوج طوال ستة أشهر من السنة ، وقد رصعت بالزهور والبراعم الصفراء • وما ان يبلغ الطريق ذروة ارتفاعه ، حتى يعود فجأة الى الانحدار ، ليتقاطع مع الطريق المتجه عبر سلسلة الجبال الأخرى ، الممتد خلفها بحر من الرمال الساكنة الخالية من كل مظاهر الحياة حتى حدود بلاد الفرس • وعلى امتداد الطريق تقع سوريا بالقرب من تخوم لبنان •

ولم يكن الطريق بالسهل المستقيم ، بل كان ينحدر وينعطف في منحنيات تشرف على الهاوية السحيقة البعد • وعلى الصخور الناتئة مستترا ببعضها ، يستطيع المرء أن يتوارى عن الأعين ، ويرى من مكانه هذا الطريق الممتد شرقا الى أكثر من مائة ياردة ، وتجاه بيروت الى أكثر من ثلثماية ياردة ، بل وانه ليستطيع من مكانه هذا أن يرى المار بالطريق عبر الجبال بمنظاره المكبر . كما يمكنه أن يتصل بمن شاء من أصدقائه المارين بهذا الطريق في أى اتجاه منه ، اذا كان معه جهاز ارسال ترانزستور . وفي هذا المكان ، في حوالى الساعة الثالثة والنصف صباحا ، كان هناك رجل يقطع وقته بعد النجوم ، ويكاد أن يسقط اعياء من طول انتظاره وتحديقه من خلال منظاره ، ويكاد معدن جهاز ارساله أن يبعث باشارات الشكوى من أطرافه التى كادت أن تتجمد من شدة برودته ، وراح الرجل يستعرض في ذهنه من يستطيع أن يتصل بهم من أصدقاء لاعفائه من عمله هذا والحاقه بعمل آخر . ولست ألومه على تفكيره هذا ان هو أقدم على تنفيذه وكانت الساعة ٣ ر٣٢ دقيقة صباحا ، عندما رايت المصابيح الأمامية لسيارة قادمة فى الطريق الجبلى . وفتحت جهازى لأتبين الحركة على الطريق من التفاصيل التى كان يبعث بها مذيعنا الخاص الى دالبى. وسمعت دالبى يزمجر بعد أن استمع الى الارسال الذى أنباه بأنه لا يوجد على الطريق الا سيارة واحدة على مسافة أكثر من حوالى ألف ياردة تقريبا ، وأن الطريق خال .

وأخيرا ، رأيت السيارة البونتياك الكبيرة تقترب وهي تتلمس

طريقها بأنوارها الكشافة في الطريق الجبلي الضيق . ورأيت الحزمة الضوئية تتخذ طريقها فوق رأس دالبي . وكان بوسعي أن أتخيله قابعا في مكانه لا يتحرك ، تاركا المقادير تجري في أعنتها . وخفضت السيارة من سرعتها ، كما قدر لها دالبي هذا . وما ان اقتربت منه حتى نهض واقفا واستقام كتمثال رامي الجلة ، وقذف ما بيده . وكانت قنبلة في حجم قطعتي صابون انفجرت ، بينما استلقى دالبي على وجهه حتى تخطئه شظاياها . ولم تتوقف السـيارة ، بالرغم من أنني كنت واثقا من أنها أصابت مستودع وقودها واطاراتها . ورأيت دالبي ينهض ويسرع للحاق بها . وكنا قد اعترضنا بسيارتنا القديمة التي انتقلنا بها من بيروت عرض الطريق . واعتقدت لأول وهلة أن سائق السيارة الهدف قد قتل ، لأنه لم يحاول أن يتفادى الاصطدام بسيارتنا السيمكا ، بل اصطـدم بها زحفا الى حـوالي الثمانية أقدام . وفي هذه اللحظة بالذات ، كان دالبي قد أصبح في محاذاة السيارة . وفتح بابها وسمعت صوت الطلقات النارية . وسمعت صوتا صادرا عن جهـاز الاستقبال الذي معي يقـول في ذعر : « ماذا تفعل ، ماذا تفعل ؟ » وخيل الي ، لأول وهلة ، أن السؤال موجه لدالبي . ثم تبينت حقيقة الامر .

فقد كانت هناك سيارة أخرى على الطريق ـ ولعلهـا كانت تتبع السيارة الاولى ـ مطفأة الانوار ، أو ربما أقبلت من الطريق الآخر القادم من بعلبك أو حمص . وتأملت امتداد الطريق على ضوء اللهب المتصاعد وكأننا في وضح النهار . وكان بوسـعي أن أتبين رجـل اللاسلكي من السفارة ، وقد وقف يحملق في اتجاهي مبهوتا . ولم أر من دالبي الا قدميه تتدليان من باب السيارة المفتوح ، ولاحظت أن سيمون كان يقف خلفه بدلا من أن يستدير حول السيارة لمعاونته ووددت في هذه اللحظة بالذات لو وكل غيري بما عهد الي به تنفيذه. غيري ممن يمكن مساءلته عما كان من اسراع هـذه السيارة « الناش » بالالتفاف وانطلاقها بأقصي سرعتها ، وعن عدم ملاحظتي لها عنـد

اقترابها من قبل . اننى من تطوع ليقف موقف المراقبة حتى لا أقوم بما كان يقوم به دالبى ـ المستلقى الآن على وجهه فوق مستودع بنزين ساخن بين قوم لن يمدوا له يدا . وعندئذ فعلت ما كان يجب على أن أفعله ، وما اقتضاه الموقف منى .

وكان سيمون قد تحرك بسيارة دالبى الى الطـــريق الرئيسى فى اللحظة التى كنت أزحف فيها من مخبئى . وفي مؤخرة السيارة كان يجلس رجل الارسال ليحرس أسيرنا الوحيد ـ صاحب الصور التى كان يحتفظ بها فاتسو وأحملها معى ، الرجل الذى كنت قد شاهدته مستلقيا فاقد الوعى على مائدة الميسر . وكان دالبى قد نهض ليرى ما حل بالسيارة «الناش» ، بينما رحت بكل ما في وسعى أقاوم ما حل بى نتيجة للرائحة الكريهة المنبعثة من احتراق السيارتين . ووقفت أشاهد ألسنة اللهب المتصاعدة منهما .

وبدأ الظلام يخف حدة في أديم الســماء الشرقى ، ولاحت في الافق من بعيد أصابع الفجر الممتدة الى أطراف السماء تلمســها فى رفق وحنـــان ، لتوقظ الدنيا من ســكونها الذى ران عليهـــا فى الساعات الأخيرة من الليل . وبدأت أتبين أشباح القرى على جوانب الجبال ، التى وطأتها أقدام سانت بول ، والتى دنستها جريمتنا منذ قليل .

وأقبل دالبى قائلا : « لعل بعضكم قد كره الأمر كله » .

فأسرعت باجابته قائلا : « فى أوله فقط » .

وصعد دالبى الى المقعد الخلفى بجوار رافن ، وسمعته يقول، « انى لجد آسف يا سيدى » ، في حزم ورنة صوت ناعمة ، وهو يخرج من جيبه حقنة صغيرة مما يستعمله رجل الأسعاف ، حقن بها الرجل الذى لم يحاول أن يقول أو يفعل شيئا . ورأيت الرجل جالسا كالمأخوذ من أثر الصدمة . وانطلقت الســيارة بنا ، مارة بحطام السيارات الثلاث . وعند شتورا ، تركنا طريق بيروت واتجهنا

شمالا الى بعلبك . وشعرت بدالبى يميل الى الأمام مادا يده بنظارة سرعان ما تعرفت عليها قبل أن يقـول : « لقد وجدتهـا بالسـيارة الناش » • ورحت أقلبها في يدى • انهـا نظارته التي لا يمكن أن تكون لغيره . نظارة فاتسو .

وسمعت دالبى يقول : « انهما من مخابرات البحـرية الأمريكية • والسيارة لسفارة الولايات المتحدة . ولعلهما كانا بسـبيل القيام بما قمنا به . كان يجب عليهم الاتصال بنا في أمر مثل هـذا » . ولاحظ انني أتطلع بنظراتى الى رافن ، فاستطرد قائلا : « لا عليـك منه ، انه في غيبوبة » .

وتذكرت في هذه اللحظة رجل البحـرية الأمريكى الذى كان يقتفى أثرى في روما وفى بيروت .

- ٧ -

استيقظنا جميعا في ساعة متأخرة من الصباح ، في ((الفيلا)) الكبيرة التى قضـينا بها ليلتنا على طريق بعلبك . وهناك ازددت معرفة بسيمون الذى علمت بأنه ضابط برتبة ليفتنانت كولونيل ، لم يسبق له أن اشترك في عملية مثل هذه . وكانت مهمته أن يسهر على هذا الرجل الذى كان محور الأحداث الليلة الماضية . وكانت الفيلا في حراسة رجلين أرمنيين لم يفاجآ بقدومنا ، مقامة في خير مكان يصلح لنا ، بين الأشجار التى تخفيها عن الأعين .

ورأيت الفرصة سانحة ، لأستفسر من دالبى عن بعض ما أريد. سألته عن جاى قائلا :

ـ ما هى حقيقة أمر جاى ـ وأين هو من كل هذه الأحداث ؟

ـ انه يديرالعمل ويدبر الأمر ـ أو قل على وجه التحـديد :

انه يدفع لمن يعهد اليه بما يريد . انه يدير وحدة ابحاث هنـــاك فى أرجو . هل تعرف أين تقع ؟ »

ـ أجل .

ـ أين ؟

ـ ان مقاطعة آرجو تقع في شمال سويسرا ، حيث يلتقى نهر الآر بنهر الراين . فلنعد الى ماكنا نتحدث عنه ، عن وحدة الأبحاث، ما هى طبيعة عملها ؟

ـ ان بالوحدة مجموعة من علماء الاجتماع ومن أطباء الأمراض العقلية ومن علماء الاحصـــاء ، الذين تمولهم مختلف المؤســـسات الصناعية لتجرى أمر ما يسمونه « بالبيئة المركبة » .

ـ لقد اختلط الأمر على .

ـ ان هذا لا يدهشنى منك . فهم لا يعرفون ماذا يفعلون على وجه التحديد . غير أننى اســـتطيع أن أوضح وجهة نظرهم بقدر ما أحطت بها . ولنضرب مثلا بالصناعة في ألمانيا . فكلنا يعرف أن الصناعة في ألمانيا كانت دائما في حاجة الى الأيدى العاملة ، مما حدا بالقائمين على أمرها الى اســتيراد هذه الأيدى من كل بلد أوروبى تقريبا ـ وكانت النتائج موفقة . بمعنى ، أنك اذا أتيت بعامل غير مدرب من بلاد اليونان مثلا ، لم يسبق له أن مارس العمل الآلى ، وكلفته بالعمل في مصنع ألمانى ، فانه سرعان مايلم بنواحى عمله كغيره من العمال القادمين من دسلدورف . هل تتابع حديثى ؟

ـ بكل جوارحى . ولكننى لم أتبين بعد المشكلة .

ـ مهلا . فلم أبلغ من حديثى بعد موطن الداء . فاذا ما قام ألمانى غربى ببناء مصنع في اليونان واستخدم فيه عمالا منها ، فان هؤلاء لن يتعلموا شـيئا على الاطلاق . ومن هنا تتبين أثر البيئة بصورة واضحة . ومن ذلك أيضا يمكنك ان تدرك كنه نظرية البيئة المكونة . وهى نظرية لها أهميتها بالنسبة للصناعات التى تقام في بلاد زراعية .

ـ ويمكن أن تكون لها أهميتها بالنسبة لنا أيضا .
ـ لدينا ملف مستكمل عن هذا الموضوع .
وهذا كل ما تطوع به دالي من معلومات عن جاى . غير أن موضوع جاى لم يكن كل ما اردت أن أستفسر منه عنه . فخضت معه في حديث عن المخابرات وعن بعض تقاريرها ، وعن غير ذلك مما كان يشغل بالي من شئوني الخاصة ، منتهزا فرصة جولتنا الصباحية في جوار الفيلا ، وبين آثار الرومان القديمة وبقايا معابدهم .

وسألته عن مستر أديم مضيفنا ، فلم يبخل على بشيء عنه مما يرضي فضولى . لقد عرفه دالبى عن طريق روس ، الذى عرفه هو الآخر عن طريق مكتب مقاومة المخدرات الأمريكى (فرع البحر الأبيض المتوسط) . وفى اعادة توزيع خدمة مخابرات حلف الأطلنطى عام ١٩٥٢ ، أصبح فى خدمة بريطانيا . وهو فى حوالى منتصف العقد السادس من عمره ، لطيف المعشر كريم الخصال ، خفيف الروح . كما أنه خير خبير بالجياد وبالخمر ، وواسع المعرفة بالمنطقة الممتدة من تركيا شمالا الى بيت المقدس جنوبا . وهو رجل طموح يتجر فى كل شيء .

ووجدنا أديم فى انتظارنا بحديقة الفيلا . وجلسنا الى مائدة حفلت بكل ما لذ وطاب من الاطعمة الشرقية ، فى قاعة طعام غلبت عليها روحه الشرقية وطابعه الريفى ، ووقف الرجل الكريم على خدمتنا ، غير مدخر وسعا فى العمل على راحتنا .

وجلست مع أديم فى حديقة الفيلا نتجاذب أطراف الحديث . وكانهو المتحدث فى الواقع وأنا المستمع . وأطال فى الحديث عن عمه الذى قتل أسدا بحربة وسمى من بعد « حامد قاتل الاسد » . وراح يفاضل بين قتل الوحوش بالحراب وبين قتلها بالنار .

واقتربت بنا ساعات الظهيرة من لحظات المساء ، عندما مالت الشمس فى الافق تمس بأشعتها الحمراء أشجار الليمون التى كانت تحجب عنا لقاء السماء بالارض . ورأينا أن نتناول عشاءنا علىالسماط

الممتد على حشائش الحديقة ، فى هذا الجو الشاعرى الذى ضاعفت من شاعريته ألحان موزار المنبعثة من رادبو قريب .

وبعد ثلاثة أيام ، عاد الينا جون من بيروت ومعه جهاز لاسلكى كبير . وقد استغرق منه اعداده للعمل حوالى الثلاث ساعات ، تمكن بعدها من الاتصال باحدى المدمرات التى كانت تجوب المياه الاقليمية للبنان .

أما سيمون ، الدعى ، المسمى بينتر ، شأنه شأن غيره فى هذه العملية ، فقلما كان يترك غرفته بالطابق العلوى . وبعد أن تم الاتصال بالمدمرة ، لم يمانع بينتر فى أن يتناول الاسير معنا طعــامه . رافن ، الاسير الذى بدا أنحل عودا وأضعف بنية مما كان عليه منذ يومين ، عندما أخرجه دالبى من السيارة البونتياك فى تلك الليلة المشهودة . وكانت ملابسه متسخة بعض الشيء ، يدور بعينيه فيما حوله بعصبية بادية القلق ، كما لاحظت أنه يكثر من النظــر ناحية بينتر . وما ان بلغا من هبوطهما نهاية اندرج حتى توقف ضيفنا عن متابعة سيره . وبدا كأنه يدرك مايستبد بنا من فضول واهتمــام بدوره الذى يقوم به . وتوقفنا عما كنا فيه من حديث . وران علينا سكون مطبق ، اللهم الا من الكلمات المتدفقة من اذاعة « صوت العرب » .

وأقبل علينا محييا بتحية المساء . وقام دالبى اليه يأخذ بذراعه فى رفق الى مائدة العشاء . وسمعته يقول له : « شــكرا على عطفك يا دالبى ، شكرا على ترفقك بى » .

ولم يكن حديث المائدة الا ســطحيا حول الطقس أو الحديقة أو الخيل ، وعجل أديم بتناول عشائه ، ليسرع الى جهاز الاستقبال لالتقاط آخر الأنباء عن تحركات المدمرة على طول الشاطىء اللبنانى . ومن بعدها يذهب الى حيث كانت الطائرة الهيلوكوبتر ، ليطمئن على أن كل شيء بها على ما يرام .

وجلسوا تحت القبة الزجاجية للطائرة متأهبين للرحيل .. فاتخذ

سيمون بينتر مجلسه الى جانب رافن فى المؤخرة . وجلس دالبى فى المقعد الأمامى بعد أن تلقى من أديم بضع كلمات عن كيفية استعمال أجهزة الطائرة . وبعد لحظات اهتزت الطائرة لتملأ الوادي بصوت آلاتها تردد صداه جنبات الجبال ، فيزداد قوة وزمجرة . ورأيت زائرنا الذى تحملنا في سبيله كل هذا العناء يرفع يده محييا . فقلت له بينى وبين نفسي : « وداعا أيهـــا الرجل المتعب ، وداعا يا رافن » . ثم اتجهت الطائرة نحو البحر . وعدت أدراجى الى المنزل .

- ٨ -

ان شهر أبريل فى لندن . من الشهور التى لا تستحب الحيـــاة فيها ، وبالذات فى يوم الثلاثاء الذى كان على ان أتوجه فيه الى شيفيلد لمقابلة بعض من أعمل معهم . وقد طال اجتماعنا الذى لم يتقرر فيه الا القليل عن تنسيق أنظمة تبادل السجلات والاتصال . وشغلت فى يوم الخميس بمراجعة بعض المعلومات الخاصـــة بعملية جاى . وبينما كنت منهمكا فى عملى هذا ، أقبل على دالبى محييا . ولم أكن قد رأيته منذ ليلة رحلته بالهليوكوبتر . واستفسر منى عن أحـوالى ، فشكوت له من تأخير بعض مدفوعاتى ونفقات سفرى . فضحك قائلا :

ـ اذن فلتقبل دعوتى لتناول الغداء حتى تكف عن الشكوى .

وذهبنا الى مطعم ولتون . ونعمنا بوجبه شهية . ودار الحديث بيننا حول العمل ، لأن دالبى لا يريد أن يضيع وقتا . فاستفسر منى عن آخر معلوماتى عن جاى . فلما أحطته علما بخطواتى ، قال لى وهو يناولنى كأسا من الشمبانيا :

ـ يلوح لى أننا نسير نحو غاية واحدة وان اختلفت سبلنا .

ولم أنس هذا اليوم ، بطعامه الشهى ، وملاحظة دالبى التى كانت

تعنى الكثير . وقد لاحظت بعد قوله هذا ، انه تعمد تغيير موضـــوع الحديث .

وفى حوالى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الجمعة التالى ، قدمت اليس الى غرفة مكتبى تحمل قدحا من النسكافيه ، ونظرة ماكرة ، وملفا أخضر جديدا ، ثم التقطت القلم الحبر الذى اسـتعرته منها من اسـبوع مضى ، وعادت من حيث أتت . وتركت ما كان بين يدى من أوراق ، وشرعت فى فحص الملف الجديد ، الذى كان مسطرا على الزاوية اليمنى منه بأحرف كبيرة ك/٦/١٤١٤٣ . وكان ما بالملف من أوراق ، يخص رجلنا جاى . واطلعت بالملف على تاريخ حياة جاى بالجامعة وعدم استكماله لدراسته بها . ثم تتابعت خطوات حياة جاى العـادية حتى يونيو سنة ١٩٤٢ ، حينما جند باسم كريستيان ستاكوفسكى ، بمخابرات الجيش البولندى ، المتخـذة لندن قاعدة لها . وقام برحلتين الى جنوب بولندا ، انقطع فى الثانية منهما الاتصال به . ثم عاد ليظهر ثانية من المجهول فى القاهرة ، واتصل بالجيش البولندى فى ديسمبر سنة ١٩٤٢، الذى بعث به الى لندن لتلقى دراسته التدريبية فى هورشام . وفى هذا الوقت كانت سلسلة الخلايا التى كان يعمل بها فى بولندا قد أبيدت ، وتبين من الأوراق احتمال اشتراكه مع الألمان فى بعض الأعمال . كمـا دلت بعض صور المستندات المؤرخ رسالة منها بتاريخ مايو سنة ١٩٤٣، على أنه كان له ضلع فى الاعتقالات التى تعرض لها العاملون معـه فى الخلايا . ولقـد كانت الخلايا السرية البولندية مختلفة الاتجـاهات السياسية ـ ولما كان جاى عضوا فى القوات المسلحة الوطنية (وهى جماعة يمينية متطرفة) ، فيرجح اشتراكه مع أبفهر الألمانى ، مما جعله يبدو بطلا فى نظر جيش التحرير المسيطر عليه الشيوعيون . وكل هذه نواح متعددة الجوانب له .

ثم تتصل الحلقات فى سبتمبر سنة ١٩٤٥ ، بعد انقطاعها ، ليعود ستاكوفسكى باسم الجاويش البولندى فوك الى بولندا بين الجنود المطلق سراحهم من معسكرات الألمان . ويحصل فى وارسو على وظيفة متواضعة

فى الحكومة الشيوعية الجديدة ، تتيح له الاتصال بهيئة المخـــابرات الخاصة بالجاسوسية الصناعية ، وبالذات ما يتصل منها بحركة اعادة ترميم الانتاج الألمانى لصالح روسيا • وبالملف مذكرة ترجح انه كان يعمل فى عام ١٩٤٧ لحساب وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، التى كان لها كثير من العملاء فى اوروبا فى تلك الفترة • وفى عام ١٩٥٠ ، يهرب فوك الى انجلترا ، حيث يندمج فى المجتمع البولندى اليمينى ، كما كان ضالعا مع الحكومة الشيوعية •

وبينما كنت ارتشف قهوتى ، تنقلت بين أوراق الملف حتى وجدتنى امام آخرها واكثرها اهمية • وهى مذكرة خاصة بأعمال الجاسوســـية التجارية عن كل ما يعقد من صفقات هامة • وقد ورد بهـــذه المذكرة ما يدل على أن فوك أو جاى لا يتسلم من الحكومة الروسية مبالغ من المال بصورة منتظمة • وان دخله كبير ، ولكنه متعدد المصادر مختلف المقادير • وعادت اليس فى الوقت المناسب ، وكانها قدرت ما يستغرقه اطلاعى على الملف من زمن ، لأننى كنت قد فرغت منه وطويته فعـلا • وبعد ان القت على محتوياته نظرة فاحصة عابرة حتى تطمئن الى انه لم ينقص منها شىء ، تابطت الملف متاهبة للانصراف • قلت لها وهى فى طريقها الى الباب :

ـ اليس ••

فتوقفت واستدارت لتواجهنى مستفسرة ، وقد رفعت حاجبيها وهى تسمعنى مستطردا :

ـ « ان تصرفاتك مكشوفة وسلوكك معيب ، وهى كاناقتك تماما ، ليست على ما يرام » •

ولكن هذا لم يحرك منها ساكنا ، بل انصرفت فى غير مبالاة •

اتصل بى دالبى يدعونى للاجتماع به فى الساعة الثالثة ، بقاعة مجلس الادارة بالطابق الأول . وألفيت دالبى واقفا بجوار مدفأة كهربائية تحت صورة كبيرة يقرأ صحيفة الجارديان . وكان تشيكو جالسا الى المنضدة الكبيرة التى تتوسط القاعة . وبعد دقيقتين تقريبا أقبل بينتر ، الطبيب ، وتبادلنا التحية .

واتخذت لى مقعدا من المقاعد المنتشرة حول مائدة الاجتماع . وما أن اكتمل عقدنا ، حتى احتل دالبى مقعده وراح يتفرس فى وجوهنا واحدا بعد الآخر . وتلفت معه أتأمل الحاضرين . فهذا هو بينتر بسنواته الأربعين ووجهه النحيل يجلس الى يمينى . وكان يجلس فى مواجهتى ضابط بالجيش ـ بحسب ما كان ـ لأن هذا ما كان يدل عليه مظهره . وكان يجول بعينيه بين الحاضرين فى ترقب وحذر . وكان يضع يديه فى احكام على حافظة أوراقه فوق مائدة الاجتماع ، وكأنه يخشى أن يتسرب منها سر مما تحتويه . انه الكابتن كارسويل كما علمت فيما بعد . وهو قادم الينا من هـ ٣٨٠ ببعض البيانات الاحصائية الهامة ، كما قال دالبى .

وبدأ كارسويل يدلى بما لديه من معلومات . لقد كلفت مصلحته بعد حادث بورجيس وماكلين ، بعمل احصاء دقيق عن الأشخاص المفقودين وتحليل هذه الظاهرة تحليلا ترابطيا . واستأذن كارسويل فى البدء بعرض الأرقام ، ثم التعقيب عليها فيما بعد . وراح يلقى على مسامعنا الكثير من التفاصيل المثيرة عن بعض الحالات ، وبعض أوجه التشابه بين بعضها البعض ، فى اتقان الحاذق لعمله ، المدرك لما يقول ، الملم بكل التفاصيل .

وبين لنا كيف كان اختطاف رافن حلقة من سلسلة اختطاف الشخصيات الحيوية الهامة لأمن البلاد . وكيف دبر جاى أمر اختطافه

وكيف ساوم ليعيده • وقرر بان هذا الحادث كان آخر حوادث الاختطاف• ثم حكى لنا عن بعض الاجتماعات المشبوهة التى تعقد فى لندن وفى بريطانيا، مما لم يستطع أحد منا أن يحيط به احاطة مستكملة النواحى•

- ١٠ -

كان من رأى دالبى أن يعمل كارسويل معى • فأعددت له غرفة خاصة تسعه هو والجاويش الذى يعمل معه ــ موراى ، واصطحبته معى الى الترزى ليعد له ولمساعدته ما يلزم لهما من ملابس مدنية • وكانا يعملان بنشاط من الساعة التاسعة صباحا الى السادسة مساء ، ثم يعودان الى منزليهما فى فولهام وبروملى • وكنت امر بمكتبهما من آن لآخر ، لأرى الى أى حد انتهت بهما أبحاثهما ، ومدى توفيقهما فى الامساك بطرف الخيط الذى يرشدنا الى السر فى هذه اللقاءات المريبة لبعض المرموقين فى بريطانيا • وقد لاحظت أنهما يسيران فى تحرياتهما على هدى بعض العوامل المشتركة التى لها دلالتها ــ كحيازة المعنيين لسيارتين ، او قضاء عطلات طويلة ، أو القيام بزيارات لأمريكا ، او لشمال أفريقيا ، الى آخر ما هو من هذا القبيل مما يتصل بامكانيات الفرد وحقيقة دخله • كما لاحظت أن كارسويل يتحرى الدقة فى جمع كل ما يتصل بهؤلاء القوم من النواحى السياسية والاجتماعية ، وحتى الصحية منها • وكنت أدون من الملاحظات ما يعنينى امره واضعه أمامى على مكتبى • وبينما كنت جالسا الى مكتبى أتامل هـذه البيانات أقبل دالبى يحمل تقريرا مقدما منى يضعه أمام عينى قائلا :

ــ استمع الى •• اننى لا أستطيع أن ارفع هذا التقرير أو ادعه يمر •

وما أن ألقيت نظرة على التقرير حتى أدركت أنه خاص بما تكلفته ثياب وحاجيات كارسويل وموراى • وان ثورة دالبى ترجع الى ما لاحظه

من اسراف في تلك المشتريات • واستطرد من ذلك الى مناقشة نفقاتي الخاصة في المطاعم وفي غيرها من اماكن الترفيه واللهو • وهذا هو شانه دائما في كل ما يتصل بالمصروفات الحكومية • وطال الجدل بيننا ، واستشاط دالبي غضبا عندما عارضت وجهة نظره • ولما وجدني مصرا على رايي ، معارضا له فيما يمس من يعملون معي قبل أن اهتم بالدفاع عن نفسي ، بدأ يتهيأ للانسحاب حسب الخطة الموضوعة ، على حد تعبيرات الجيش ، وانتقل الى الحديث في صميم العمل ، بلهجة زالت عنها كل حدة وبنبرات هادئة • وتبسط معي في الحديث ، حتى انه قال لي انه سيعهد الي بتولي امر الادارة كلها • ولما لاحظ أنني دهشت لتصريحه هذا قال :

ـ لن يكون هذا لأكثر من ثلاثة اشهر • ومع ما ينقصك من تعليم كلاسيكي ، الا أنني واثق من استطاعتك التغلب على هذا النقص •

وكان جادا في قوله ، لأنه عكف بعد هذه المقدمة الى احاطتي علما بكل صغيرة وكبيرة مما يتصل بعملنا ، واشتركت معه اليس في ذلك•• وعلمت منه أنه مسافر في اليوم التالي ، ولكنه لم يصارحني بشيء عن طبيعة مهمته • ورأيت أن أحصل منه على معلومات أكثر عن جاي ، فقال لي :

ـ ستجد كل شيء عنه في الملفات • راجعها واطلع على ما فيها من وثائق ومستندات تنل بغيتك •

ـ كنت أفضل أن أسمع منك رأيك فيها •

وفي الحق ، أنني كنت اريد أن أوفر على نفسي عناء مراجعة هذه الملفات • ولم يجد دالبي بدا من ان يعطيني فكرة عامة قائلا :

ـ عندما استقر جاي في لندن سنة ١٩٥٠ ، كان يعمل جاسوسا لحساب الامريكيين • ولم يكن يعنينا من آمره شيء ، لان نشاطه كان قاصرا على النواحي الاقتصادية والصناعية • وكان قد اتخذ له مكتبا في شارع برايد • ولم يلفت انظارنا اليه ، الا في أعقاب حادث بيرجس

وماكلين • وكنا قد تلقينا مذكرة تدعونا الى مساءلته عن هذا الموضوع •
وفى الواقع اننا لم يكن لدينا اية فكرة عن اقحامه فيه من قبل •

ـ وما هو مصدر تلك المذكرة ؟

ـ لم تكن المذكرة محررة أو مسجلة • وتصادف اننى لم أكن متوليا الأمر حينئذ • فاذا ما اهتديت لهذا المصدر ، نبئنى بذلك فورا• ان هذا الموضوع يعد فى مقدمة المسائل المستغلقة على ، والتى لم اتمكن بعد من اماطة اللثام عن كنهها • ومع ذلك ، فيجب أن تعلم بأن له اصدقاء فى المستويات العليا •

والمستويات العليا هذه لا تعنى عند دالبى الا شيئا واحدا • فقلت :

ـ فى الحكومة ؟

ـ فى مجلس الوزراء • وحذار أن تردد شيئا من هذا القبيل • اذ ليس لدينا أى دليل على ذلك • كما أنه لا يوجد بين أيدينا ما يدل على أن له علاقة بأية عمليات غير مشروعة منذ عام ١٩٥٠ • لقد قمنا بتحرى أمر تحركات جاى ابان حادث بيرجس وماكلين • وليس من شك فى أن تحركاته كانت موضع شك وريبة • فعندما كان ماكلين بالسفارة البريطانية بالقاهرة ، زار جاى القاهرة مرتين • وبتاريخ ٢٥ مايو سنة ١٩٥١ ، شوهد ماكلين مع بيرجس فى سيارة اتجهت بهما الى سوثهامبثون• واقلعت بهما الباخرة الى سانت مالو • وثبت أن جاى كان معهما فى هذه الرحلة • ثم كان أن عاد جاى دونهما • وبعد ذلك بفترة ليست بالقصيرة• ورد من أحد البنوك السويسرية امر بدفع مبلغ ألف جنيه لكل من أسرتى الرجلين باسم والدة زوجة ماكلين • وبعد قليل ورد أمر دفع بمبلغ ٢٥٫٠٠٠ جنيها محولة من البنك السويسرى الى بنك س • هيلينك فى لندن باسم مستر أرسطو • وارسطو هذا هو جاى • وليس ثمة غبار فى ان يتلقى رجل يعمل بالتصدير والاستيراد مبلغا مثل هذا ، ومهما يكن من أمر ، فما اظن الا ان نشاط جاى الخفى يعد سلعة رابحة مرتفعة القيمة •

ـ وبعد ؟

ـ وبعد ؟ ان هذا هو عين ما نحن بسبيل تقصي آثاره فى هــذه المرحلة الحالية •

ـ وهل كان رافن الذى قمنا باختطافه فى بعلبك ، حلقة من سلسلة هذا النشاط ؟

ـ لقد كان عالما من علماء الكيمياء الحيوية بمركز الأبحاث الحربية فى بورتون • وجدير بك أن تعلم بأن قسم الصحافة بادارة الأمن العام يحظر نشر آية أسماء بالصحف • ولن يتكرر ما حدث حول اختفاء بيرجس وماكلين فى الصحف أو فى مجلس العموم •

ـ وهل تعتقد أن فيما يقوم به كارسويل علاقة بنشاط جاى ؟

ـ كلا • فانه وان كان جاى يجنى الكثير من مثل هذه العمليات ، الا أنه أكثر فطنة من أن يسرف فيها • وأعتقد أنه يقوم باختطاف أحد كبار العلماء من آن لآخر عندما يريد ان يحقق لنفسه صفقة جــزيلة العطاء ، مما لا يجعل لعملياته النطاق الواسع الذى يجرى عليه كارسويل أبحاثه • دع كارسول جانبا الآن ، حتى يضع يده على شيء ثابت معين يكون جديرا بأن تضعه موضع الاعتبار •

ونهض منصرفا • وســمعت وقع أقدامه على الدرج الخلفى ، مع صوته الآمر لتشيكو أن يعد الفيلم الى يريد أن يشاهد عرضه قبل رحيله • وجمعت حاجياتى الخاصة ، وانتقلت الى غرفة مكتب دالبى •

ووجدت بالغرفة كثيرا من الصحف اليومية وبعض صور الضباط المثبتة الى الجدار فى اطاراتها • وأسـفل النافذة وجدت جهـاز التسجيل الخاص الذى يعتز به دالبى . لقد كان دالبى شابا طموحا مقداما يفيض حيوية ونشاطا ، ومن خير من صادفتهم فى حياتى من رؤساء . ولم يكن الرجل ممن يدعون لأنفسهم الفضل فى كل شيء ، بل كان يرحب بالفكرة الجديدة ويناضل فى سبيلها بعد ان يقتنع بها ، ثم ينسبها الى صاحبها مشيدا بفضله . وكان هذا الجهاز هو مفتــاح ما تتمتع به منظمتنا من شهرة ، لأنه كان ييسر لنا سبيل الحصول على سلسلة من المعلومات التى لا تتهيأ لغيرنا . كما كان الجهاز يعد

لنا من هذه المعلومات ما ينسقه آليا بكفاية أعلى مما يستطيعه العقل البشرى • وكان دالبى يعتز بهذا الجهاز الذى جعل منه شخصية لها قدرها فى انجلترا •

وكنت بمكتبى فى تمام الساعة العاشرة والنصف من صباح يوم الأحد . ولم يكن من عادتى أن أتوجه الى مكتبى فى آيام الآحاد ، ولكننى كنت اريد أن أقوم بمراجعة بعض المعلومات الهامة • ووجدت صحف الأحد فى مكانها المعهود ملقاة فوق صحف السبت . كما وجدت جهاز التسجيل وقد رفع غطاءه . وجلست الى مكتب دالبى الفخم، أتأمل المفاتيح الكهربائية المتعددة الألوان المختلفة الاتصالات .

ورفعت عينى عنها ، لأجد أليس واقفة بالباب تحمل قدحين من القهوة الساخنة . وتقبلت منها قدحى شاكرا ، مستفسرا عن سبب حضورها الى المكتب فى يوم أحد • فابتسمت قائلة :

ـ اننى استطيع أن انتج ضعف ما أنتجه فى غير ايام الآحاد الهادئة .

وبعد أن أصلحت من شأن الغرفة ، وأعادت كل شىء الى مكانه ، اتجهت الى ناحيتى سائلة :

ـ أوتزمع تشغيل جهاز التنسيق الآن ؟

ـ الى حد ما . ثمة نواحى لا أفهمها منه . كتجميع الصور مثلا •

وسلمتها حزمة منها . فتناولتها مبتسمة وهى تقول :

ـ سأحاول تشغيل جهاز الانتقاء والفرز •

ودأب كارسويل على مواصلة أبحاثه ، وعكف على تتبع حوادث السطو والسرقة وتقصى طبيعة اتصالها بأعمال الجاسوسية ، ومحاولة الربط بينها . والحق أقول ، أننى لم أستطع من زياراتى لكارسويل أثناء عمله ، أن أفهم شيئا مما يجريه من احصاءات أو يخطط له من بيانات . ودعوته فى يوم الثلاثاء ، لتناول مشروب بمكتبى . ولاحظت انه مبتئس الي حد ما . وبعد أن احتسى ثلاثة أقداح من الجعة على

التوالى ، بدأ يروى لى الكثير عن فترة طفولته بالهند ، ويحكى لى قصة شبابه كضابط أرستقراطى فى الجيش بتوجيه من والده . وما أن توفى والده ، حتى تقدم بطلب الانضمام الى مكتب الاحصاء التابع لجيش الهند فى كلكتا . ولم يكن طلبه هذا عن رغبة أو ميل لهذا الطراز من العمل ، بل كان بدافع من مجرد الرغبة فى تغيير أسلوب حياته الماضية من قبيل التمرد على نمطها .

وبعد عامين قضاهما فى عمله هذا ، بدأ يتذوقه ويدرك مدى ماللاحصاء وجمع البيانات من أهمية لأسلوب العمل كله .

وبعد أن تطرق بنا الحديث وتشعب فى نواحى العمل ، رأينا أن نكتفى بهذا القدر ونعود الى منازلنا . ووقفت بالنافذة أتامل المارة فى معاطفهم المبتلة من مياه الأمطار المتساقطة . وما أن استدرت متهيأ للانصراف ، حتى دق جرس التليفون الأحمر ـ تليفون الطوارىء ـ ورفعت السماعة لأتلقى المكالمة التالية :

ـ ألو ، هنا مكتب التسجيل الجنائى باسكتلنديارد . ضابط الاتصال العسكرى الكابتن كيتلى ، على الخط .

ـ نعم يا كيتلى ؟

وأدركت لتوى ان ما كنت أمنى نفسى به من امسية هادئة بجوار المدفأة مع كتابى التاريخى المفضل ، قد ذهب وولى .

- ١١ -

ـ لقد تلقينا مكالمة من مركز شرطة شوردتش ، لهما غرابتها . انهم يحتجزون شخصا ما ، اثر حادث من حوادث الطريق . اعتقد ان سيارته قد خالفت قواعد المرور .

ـ أجل ، وبعد ؟

ـ وساله الكونستابل عن رخصة قيادته وغير ذلك ...

ـ كيتلى ، ارجوك أن تدخل فى الموضوع .

ـ حسنا يا سيدى . ليس لدينا عن جونى السيارة هذا اية معلومات . اعنى انه ليس له بطاقة بيضاء ، ولكن له اخرى خضراء ، شانه فى ذلك شأن من هم موضع الشبهات ، دون أن يكون لهم سجل اجرامى .

ـ اعرف هذا . ولكن خبرنى كيف عرفت أن له بطاقة خضراء ؟ هل صارحكم باسمه ؟

ـ كلا يا سيدى . اليك ما كان تفصيلا . ان جونى هذا ، يرتدى حلة كبير مفتشى الشرطة بالعاصمة . ولحسن الحظ ، فقد سبق للكونستابل العمل بمكتب التسجيل الجنائى لمدة عام ، فتعرف عليه وتبين انه مدع زائف .

ومن هنا كان اهتداؤنا الى بطاقته الخضراء المظهرة بمعرفتكم على انها من البطاقات التى لها اهميتها وأسبقيتها . وهكذا اتصلت بك تليفونيا ، للاستفسار عما اذا كنا نحيط شرطة شورديتش علما بأن له بطاقة خضراء ؟ وهل تريدون ان نحتجزه لحسابكم ؟

ـ استمع الى ياكيتلى . بلغ شرطة شورديتش باحتجاز هذا الرجل . وفى الواقع أننى أريد أن يقوموا بتفتيشه بكل دقة ، وتجريده من كل ما معه . وعليهم أن يبحثوا حذرين عن حبوب السيانيد ، التى يحتمل أن توجد معه . وقل لرئيس الشرطة هناك أنه مسئول شخصيا عن سلامة هذا الرجل ، وانه يجب أن يودعه سجن المركز بمجرد أن تنتهى من مكالمتك معهم ، والا يغفل عن مراقبته . وعلى رؤساء هذا الكونستابل أن يتخذوا اللازم لترقيته فورا . انه جدير بهذه الترقية لجراته ـ ان اعتقال مفتش شرطة ليس بالعمل العادى . وقل لهم اننى قادم اليهم فورا ، وسأكون بمركز الشرطة قبل السابعة والنصف .

ـ سأعمل على تنفيذ اوامركم فورا .

ـ شكرا . ولقد أحسنت باتصالك بى مهما تكن النتائج .

ـ شكرا لك يا سيدى .

واعدت السماعة الى حاملها ، ثم اغلقت جهاز التنسيق ، وقمت بضغط المفتاح الأبيض الذى يحول المحادثات التليفونية الخارجية الى جهاز التسجيل . ودعوت موراى لمرافقتى ، وغادرنا الادارة الى شارع توتنهام كورت حيث وجدنا السيارة فى انتظارنا . وانطلقت بنا السيارة مسرعة الى مركز شرطة شورديتش .

وعادت الأمطار لتهطل غزيرة ، ولمعت الطرقات بمياهها تعكس اضواء مصابيحها . وما أن توقفت السيارة بنا ، حتى قفزنا منها وتبعنا السائق الى داخل مركز الشرطة . واستقبلنا السرجنت الذى تلقى من كيتلى ما أصدرته من أوامر قائلا :

ــ كل شىء على ما يرام ياسيدى . فما أن تلقينا أوامرك حتى قمنا بتنفيذها فورا . ان رجليك الآخرين ما كادا أن يودعا سيارتهما .. لقد كانا فى غنى عن هذا العناء ..

ــ رجلاى الآخران ؟

وشعرت وكأن يدا تعتصر قلبى عصرا وادركت لتوى انه ما كان لى أنا أيضا أن أكلف نفسى عناء المجىء . وعندما اقبلنا عليه وجدناه مستلقيا جثة هامدة لا حراك بها .وكان رجلا قوى البنية ، وسيما ، فى حوالى الخامسة والثلاثين من عمره . وكان يبدو أكثر سنا عما كان عندما رايته من قبل . انه هاوس مارتن الذى لم يعد له مكان بين سجلاتنا ، والذى يسقطه الآن اتباع جاى من عداد رجالهم ، فى تمام الساعة ٧ و ٣٣ دقيقة من مساء هذا اليوم . وامرت باستدعاء الكونستابل الذى القى القبض عليه ، فاقبل واستفسرت منه عن كل ما حدث .

وعاد الى الكونستابل فيناى ، بتقرير مفصل عما جرى . وكان السرجنت الواقف مستندا الى باب السجن لا يفتأ مرددا ، « أو بعد خدمة تبلغ الخمسة وثلاثين عاما ... » وكانت نبرات صوته مرتفعة تختلج بما يعتمل فى نفسه من قلق على مآله ومستقبل معاشه ..

والتفت الى الكونستابل أستزيده ايضاحا . وعلمت منه بأنه كان يشك فى أمر هاوس مارتن لأول وهلة ، ولكنه لم يكن ليستطيع

التثبت من ذلك ، لو لم يكن قد خالف قواعد المرور واصطدم بحامل الاشارة الضوئية . وأنه يشك فى أن الرجل كان قادما من أحد المنازل المجاورة .

وطمأنته على ما قد تسفر عنه ظنونه من نتائج ، وبعثت الثقة فى نفسه ليصارحنى بكل ما يجول فى خاطره . وقلت له أنه ليس مطالبا باثبات كل ما يدلى به فى هذا الشأن . قلت له :

ـ لنفترض الآن أن هـــذا الرجـل كان قادما من أحد المنازل فى هذا الشارع • فلتستعرض الآن هذه المنازل • هل بوســعك أن تذكر كل شيء عنها ؟

ـ أجل ، يا سيدى . فلكل منزل من هذه المنازل ما يميزه . والقليل منها لا يزيح ستائره عن نوافذ حجراته الأمامية الكائنة فى واجهة هذه البيوت .

ـ ان ما يعنينى من أمر هذه المنازل ، هو ذاك المنزل الذى حل به مستأجرون جدد فى الستة أشهر الاخيرة . منزل يتردد الناس عليه ولا ينقطع زواره عنه • أناس من الخارج وليسوا من أهـــل الجيرة • هل يوجد من بين هـــذه المنازل منزل يمكن أن يدخل الناس اليه من باب « جاراجه » مثلا ؟

ـ يوجد منزل منعزل عن غيره من المنازل ، لأن المالك اشترى الموقعين المجاورين له من كل جانب . وبديهى أن يكون المنزلان الكائنان فى الجهتين محصورين من جانب واحد فقط . وهما رقم ٤٠ الذى تملكه مسز جرانت ، ورقم ٤٤ الذى يملكه مستر ادواردز • أما المنزل المحصور بينهما فلست أذكر شيئا عن شاغليه ، ولا عن لافتة «اللايجار» قد ثبتت اليه .

اذن فسأبتاع هذا المنزل الكبير بكل ما حوله •

واتصل كيتلى تليفونيا بمركز الشرطة ، وما أن علم بما حدث حتى أقام الدنيا وأقعدها . وسمع موراى صوت كيتلى يرتفع قائلا فى حـدة ، « أو قتل فى مركز الشرطة بالذات ؟ أو بلغ الامر هـــذا

الحد ؟ » وكان يكفى أن يوجه اليهم ضابط اسكتلنديارد هذه الملاحظات التى ارتفع بها صوته ليقض مضاجعهم .

وأمرتهم باتخاذ كل ما يلزم لرفع ما قد عساهم أن يعثروا عليه من بصمات أصابع للرجلين المشار اليهما ، مع موافاتى بأوصافهما التى يمكن بها التعرف عليهما - وان كنت واثقا من أنهم لن يوفقوا الى شىء من هذا القبيل ، لأننى كنت أعرف كيف يعمل جاى ومدى ما يتخذه من احتياطات فى كل خطواته . ولم يكن تعرف الكونستابل على هاوس مارتن بحكم سابقة عمله بمكتب السجل الجنائى الا مجرد مصادفة لعب فيها حسن الحظ دورا كبيرا . وسألت الكونستابل فينى ، الذى كان يقف فى انتظار أوامرى ، أن يرشدنى الى الموقع على الخريطة . وبعد أن قام بذلك ، سألته أن يرشدنى الى حيث يمكننى أن أتصل تليفونيا بجهة ما دون أن يزعجنى أحد .

وسرعان ما كانت غرفة الاستعلامات باسكتلنديارد على طرف الخط الآخر . « هنا مركز شرطة شورديتش . أريد الاتصال بالمسئول عن قسم ٣ هـ أمين عام . المتحدث من جهاز الامن السرى . » وبعد قليل تم الاتصال بينى وبين كبير المفتشين بانبورى ، الذى كانت لى به سابقة معرفة ، فأغنانى عن تلك المقدمات المعروفة ، ودخلت فى الموضوع قائلا أننى أريد أن يبعث الى بثلاثين ضابطا ، على أن يكون خمسة منهم على الاقل مسلحين ، وعلى أن يستقل هؤلاء أربع سيارات عادية ، وأن تزود احدى هذه السيارات بجهاز لاسلكى وسلم بخطاف. ثم أردفت قائلا :

- واصدر أمرك الى مكتب الصحافة باننى لا أريد نشر اى شىء عن هذا الموضوع . وكذلك الحال بالنسبة للاذاعة . هذا كل ما فى الامر. وعليك بالاتصال بى بمجرد قيام الحملة - فلنقل فى مدى نصف ساعة .

- كلا ، ليس أقل من ساعة .

- نصف ساعة كما قلت . انها عملية من عمليات الأمن التى

لها طابعها الخاص . اذا لم تستطع أن توافينى بما طلبت فورا ، فما عليك الا ان تصارحنى بذلك حتى اتدبر أمرى .

ـ اذن فسأحاول أن يتم هذا فى مدى اربعين دقيقة .

ـ شكرا . الى اللقاء . وكانت الساعة السابعة وثمان وخمسون دقيقة مساء .

وارتقيت الدرج الى الطابق الاعلى . ووجدت موارى متكئا على منضدة ، والى جواره الكونستابل والرقيب واحد المفتشين . واستفسرت من الرقيب عمن عساه يكون المفتش . وبعد أن عرفت منه حقيقة شخصيته ، لأن المرء لا يلدغ من جحر مرتين ، قمنا باعداد العدة لما نحن مقبلون عليه ، واتفقنا على كيفية توزيع القوات ، واخبرتهم بانهم يمكن أن يشتركوا معى ، بشرط أن تظل العملية سرا مغلقا على الجميع ، وأنهم سيتعرضون لأقصى عقوبة نص عليها قانون اذاعة الاسرار الرسمية ، اذا ما تسرب شىء من تفاصيل هذه العملية .

وفى تمام الساعة الثامنة وواحد وعشرين دقيقة ، دق الباب ، وأقبل شرطى ليعلن قدوم احدى سيارات البوليس الحربى ، قائلا ان السائق يسأل عن مستر موراى . وقال موراى أنه رأى أنه يحسن بنا أن نستعين بسيارة من سيارات الميدان المزودة باللاسلكى . وذهبنا ـ انا وموراى ـ لنتأكد من امكان الاتصال لاسلكيا باسكتلنديارد .

ـ ١٢ ـ

يمتد شارع أكاشيا العريض الرطب في أحد تلك الأحياء التى تقع على مشارف لندن . ولم تكن مبانيه لتعلو كثيرا عن أطراف الأشجار المغروسة على جانبيه . ولم تكن لترى من نوافذ منازله الا الضوء الخافت يتسلل من بين ستائرها القذرة ، لينضم الى اضواء الشارع التى تشارك مصابيح المنازل خفوتا .

وانتظرنا حتى اتخذ كل من معنا من الرجال مكانه المعين له وأبصرت بباب يفتح ، وينفذ منه ضوء خافت يكشف عن رجل راح يرفع الأغطية عن السيارات الواقفة ليتبين سيارته التي يجب أن يستقلها من لوحتها النحاسية . وأخيرا اهتدى الى بغيته وانطلق بها في الشارع الذي عاد الى سكونه واظلامه ثانية بعد مغادرة السيارة له .

وكان للمنزل رقم ٤٢ بابان كبيران يصل بينهما ممر نصف دائري من الحصي الدقيقة . وشاهدت بأحد نوافذ الطابق الأعلى ضوءا خافتا يشع منها . وكانت سيارة الميدان المزودة باللاسلكي في وضع اقرب من غيرها من سيارات الشرطة الأخرى التي جئنا بها ، وقد جلس بها الشرطي الحربي ليلتقط ما يبلغه به رجال الشرطة المختبئون بالحديقة . وبعد أن أعطانا الاشارة المتفق عليها بيننا ، رأينا أنا وموراى أن ننفذ عنوة من احدى النوافذ الجانبية . وعلى رجل الشرطة العسكرية أن يقوم بوصف ما نبلغه به من اشارات ضوئية .

واقتربنا من المنزل حذر أن يسمع وقع أقدامنا على الحصي . وساعدنا على ذلك تحليق طائرة في هذا الوقت بالذات غطت ما عساه أن يكشف عنه وقع أقدامنا . وكنا نمشي على حذر بجوار الجدران متجنبين مساقط الضوء . وتأملت ساعتي الضوئية ، فوجدتها الساعة ١١ر٩ مساء . وشعرت بحركة أحد رجال الشرطة في الناحية الأخرى من موقعنا . وكانت الأمطار قد كفت عن التساقط ، وسكنت الرياح ، وران على المكان صمت مطبق وسكون مخيم . ثم قطع حبل هذا السكون صوت قطار يدوى عن بعد . وشعرت بيد موراى تلمس ذراعي كاشارة للبدء بالعمل . وعالجنا النافذة بما لدينا من معدات حتى استجابت لنا وقفز من خلالها موراى الى الداخل . وبعد أن استعاد توازنه تناول مني غدارة الجيش وتبعته الى الداخل .

واستطعت أن أتبين على شعاع القمر النافذ الى ظلمة المكان ،

اننا فى غــرفة صــغيرة صفت بها المقاعد والأرائك القــديمة المريحة • ورأيت على احدى الأرائك بعض الثيــاب المتناثرة • وتقــدمنى موراى الى الردهة • ووجدنا بعض الأوراق مبعثرة أســفل الدرج • واستنتجت من ذلك أن المنزل خال • ومع ذلك فقد واصلنا تفتيشنا حتى الساعة ٩د٢٨ •

وقررنا العودة من حيث أتينا ، بعد أن تركنا شرطيين لحراسة المنزل . وأخبرنا رجال القوة بأن حفلة الميسر التى كان مزمعا اقامتها قد ألغيت فى آخــر لحظة • وذلك حتى لا يتســاءل أفراد القــوة عن طبيعة هذه الحملة التى لم تتم . واصــطحبت موراى الى حيث تناولنا قدحا من القهوة .

- ١٣ -

تحدثت الى موراى في كل موضوع ماعدا العمل . وكان موراى من هؤلاء الرجال الأكفاء المطيعين للأوامر الذين يمكن أن يعتمد عليهم رؤساؤهم • وجلسنا نتبادل الحــديث فى شتى الموضــوعات الحــربية وفي قوانين حمل السلاح ، وكان موارى يحاول أن يجارينى ، ولكنــه لم يحاول أن يخفى اعجابه بواسع اطلاعى ووفرة معلوماتى •

ولما قفلنا راجعين الى المنزل رقم ٤٢ ، كان رجــال تحقيق الشخصية قد فرغوا من رفع بصمات الأصابع وتصــوير ما كانوا بحاجة الى تصويره • ووجدنا أن « تشيكو » و « روس » قد وصلا الى المنزل . وكان روس ينفث على منصبى الجديد ، ولعله قدم للظهور على مسرح الحادث عن طريق كيتلى • وكان كل من تشيكو وروس ينقبان فى الحديقة عنــد عودتنا الى المنزل • وبعــد أن التقينا ، اتجهنــا الى المنزل •

ولم نجد بالمنزل أو بأثاثه شيئا غير عادى ، على الأقل فيما

يتعلق بالطابقين الأرضي والأول ، اللهم الا من هذه الغرفة المصدة بالطابق الأرضي لتكون مكتبا ، وفى ركن منها كشك تليفون خشبى بدلف زجاجية . كما وجدنا بالغرفة بعض الكتب والمؤلفات ، اكثرها من مجلدات القواميس والخــرائط وأدلة الطـرق والسكك الحــديدية وما شابهها . ولم نجد بصوان الملفات الا حــوالى المـائتى بطاقة بيضاء. ودخلت الى البهو ومنه الى الدرج أرتقيه الى الطوابق العليـــا . وتركت موراى وتشيكو بالطابق الأرضي يواصلان بحثهما وتنقيبهما . وتبين لى من تجوالى بالطوابق العليا أن شاغلى هذا المنزل قد حرصوا على اخفائه عن الأعين ، وجعلوا منه مبنى أقرب ما يكون شبها بقفص سدت منافذه لا يستبين الرائى ما بداخله . كما عثرت على حجـــرة أقرب ما تكون بنوافذها وتجهيزها الى غرف السجون ، التى لا تتيح لشاغلها أن يرى أكثر من صفحة السماء في أى اتجاه . وخرجت من هذه الحجرة الى دهليز انتهى بى الى باب خشبى ضخم يؤدي الى غرفة كانت فريدة في بابها .

فلقد كانت من تلك الغرف الفسيحة ـ حوالى ٢٠×٢٥ قدما وكان في منتصف الغرفة صهريج معدنى ضخم ـ حوالى ٨×٨ قدما و٥ ارتفاعا ، وبه من المياه حوالى الأربعة أقدام . وسمعت صـوت تشيكو الذى كان قد لحق بى من ورائى يقول : « تلك ظاهرة جديرة بالنظر » . وأقبل على الصهريج يدور بعصاه في مياهه . واستغرق اخراج مابالصهريج من أشرطة تســـجيل ومعـدات ، ما يقرب من الســاعة .

ولما هبطت الدرج الى الطابق الأرضي ، وجدت مصـــورى السينما الخاصة بالادارة ، واثنين من رجال معمل تحليل اسكتلنديارد يقومون بعملهم ، فآثرت أن أترك لهم الموقع لبضع ســـاعات يفرغون خلالها من عملهم .

وكنت في منزلى مع خيوط الفجر الأولى ، وصوت الطيور التى

صحت على صبح رطيب . وبعد أن أعددت قدحا ساخنا من القهوة واللبن ، آويت الى فراشي متعبا يثقل النوم جفوني .

واستيقظت من نومي بعد أن تقدم بي الصباح ، ونهضت لأغتسل ولمازلت مجهدا لم أستوف حقي من النوم . وأسرعت بارتداء ثيابي ، وغادرت منزلي على عجل في سيارتنا الخاصة التي وجدت بها نسخة من الصحف الصباحية ، التي تصفحتها في السيارة ، وراجعت الاعلان الدوري الذي اتفقنا على نشره مع دالبي بالاصطلاحات الرمزية بيننا في باب المسرح من الصحف اليومية ، لنحيطه علما بما يجري في غيابه . وقد تركنا لأليس هذه المهمة التي كانت تجيد القيام بها مع ما تجيده من مهام أخرى .

وتوقفت بي السيارة عند اسكتلنديارد . وكانت غرفة رئيسها المسئول فسيحة التنسيق . وبعد أن تبادلنا التحية ، دعاني للجلوس وقدم الى سيجارة تلو الأخرى ، لأني تركته يسترسل فيما كان يشكو منه ويتذمر دون ان اقاطعه . انه يشكو من قلة موارد الادارة المالية ، بينما تغدق الحكومة على منظمتنا من الاموال ما ليس له حد ، مما يعرقل أحيانا جهود اسكتلنديارد ونشاطها .

وبعد أن فرغ من شكواه ، وهدأ نفسا اذ نفث عما يجيش به صدره ، وجدت الفرصة سانحة لنطرق في حديثنا أبواب ما قدمت من أجله ، وطال بنا الحديث في العمل ، وفيما كان من تصرفات بعض من يعملون معي ومعه .

- ١٤ -

كان يوم الثلاثاء يوما من أيام الصيف المشهودة . صحوت فيه من نومي على نباح كلب الجيران . وتصفحت بريدي الخاص : فهذا خطاب من قسم الاشتراكات بمجلة تايم يدعوني للاسراع بارسال

قيمة الاشتراك قبل أن تفوتنى فرصة العمر . وتلك رسالة من خالتى الكبرى تدعونى بها لزيارتها بجنيف . وهذا خطاب من وزارة الحرب يؤكد اعفائي من العمل بالجيش ، ويوجه نظرى الى أننى أصبحت مسـئولا عما يقع منى من مخالفات بمقتضى قانون الأسرار الرسـمية الذى أتولى عملى الجديد بمقتضاه .

وما أن اسـتقر بى المقام فى مكتبى بالمنظمـة ، حتى انهمكت فى مراجعة بعض الوثائق السرية للغاية . ومن بينها بعض المستندات عن الكيمياء الحـربية والأفلام الشـديدة الحساسية . واتضـح لى من بعض هذه الأوراق أن وزارة الدفاع الأمريكية واثقة من أن بعض مهندسي شركة الطيران « بى أو ايه سى » يقوم بهذه العملية .

وقمت بالتأشير على هذه الأوراق بما يفيـد تكليف « الفرع الخاص » باتخاذ اللازم . وأقبلت على أليس تنبئنى بأن ضابط استعلامات اسكتلنديارد قد اتصل بها مرتين ليستفسر منها عما هو فاعل ازاء ما وصل الى علمه من أن الصحافة لديها فكرة عن موضوع المنزل رقم ٤٢ . ولما ألحت فيما عساها أن تجيبه به قلت لهـا ، « عليه أن يخبر الصحف بأن الأمر بين يد أحد قضاة المحكمة العليا واحد الوزراء واثنين من كبار رجال الصحافة . وأننا سنوافيهم بكل ما يستجد من تطورات في الوقت المناسب » .

ــ سمعا وطاعة يا سيدى .

وتلقيت التقرير الشامل عن المنزل رقم ٤٢ من المختصين . والقيت عليه نظرة : « كان بالمنزل آثار أقدام وبقع ، يمكن أن تكون بقع دواء قديمة » . و « عن بصمات الأصابع كان منها الكثير غير المعروف . ولم تزل الادارة المختصة توالى أبحاثها في هذا الشأن ».

وكان على أن ألتقى بروس في تمام السـاعة الثالثة . وقد اصبح هذا اللقاء من مقتضـيات منصبى الجـديد نيابة عن دالبى . وبعثت في طلب بعض الشطائر والحلوى . وبينما كنت أتناول هذه الوجبة الخفيفة ، اقبل تشـيكو ليضع على مكتبى فيلم ١٦ مم ، وليقف

منتظرا اتاحة الفرصة له ليدلى بما لديه • ولكننى لم امكنه من ذلك ، واكتفيت بأن أومأت اليه برأسي شاكرا ، متشاغلا بما أمامى من أوراق ، فلم يجد بدا من ان ينصرف كارها •

وجلست احدق النظر فيما أمامى من أوراق ، مستعرضا مادون بها وما كان من أحداث . ولم استطع أن أربط بين كل ذلك لاخرج بدليل قاطع على ماجاى من يد وعلاقة بما نحن بصدده مما يشغلنا أمره .

وكنت في حيرة من امرى . هل اواصل أبحاثى وتحرياتى في موضوع هذا المنزل ؟ ولكن على اى اساس ؟ وقررت ان اتبادل الرأى في ذلك مع روس لاتبين منه ما اذا كانت ادارته تواصل خطواتها فى هذا السبيل من عدمه . ونهضت متجها الى النادى الصغير الذى يؤمه روس في شارع جيرمين ، حيث وجدته قد سبقنى اليه بنصف ساعة . ولم تكن هذه الاجتماعات الاسبوعية لتستغرق منا أكثر من عشر دقائق نستعرض فيها تقدير مخابرات الجيش الذى يرفع الى مجلس الوزراء ، ونتبادل خلالها الرأى في النفقات المشتركة بين الادارتين . وبعد أن دعانى الى كأس من المارتينى ، وقدمت اليه سيجارة أشعلتها له ، بدأ الحديث قائلا :

ـ الحق اقول لك ، ان تقريرنا لم يعد بعد • ان سكرتيرتى تقوم بكتابته الآن .

ولم أعقب بشيء . وآثرت أن ألوذ بالصمت ولا أحرجه كما كان يحرجنى عندما أتاخر في اعداد تقريرى ، لأننى كنت أريد أن أعرف منه شيئا عن خطواته في موضوع المنزل رقم ٤٢ . وكنت أعرف أيضا أن سبيل المبادرة المباشرة مع روس سبيل لا يجدى ، بل قد يكون عكسيا . وسمعته بعد قليل يقول لى ، ولعل ذلك كان منه لأول مرة منذ أن تعارفنا :

ـ انك لم تزرنى بسكنى المتواضع . اليس كذلك ؟ لقد أصبح

جديرا بزيارتك ، وبالذات حديقته الجميلة ، التى تشعرك بأنك في الريف بين اشجاره وحقوله .

واستطرد في حديثه عن تفاصيل مابذله من جهد في سبيل تنسيق حديقة منزله ، وتشعب به الحديث ليبدأ من أيام خدمته كضابط صغير بعدن ، الى الحديث عن زوجته ، ومن بعد عن ولده الذى أوشك على الانتهاء من دراسته الثانوية ليلتحق بالجامعة ، ثم عرج الى الحديث عن سنوات عملنا معا وأنه كان يعتز بى كعضو منتج في ادارته ، وانه كان يود لو واصلنا عملنا معا ، وانني حققت الآمال المعقودة على في عملي الجديد وبرهنت على كفايتى وجدارتى به.

وكان هـذا التبسط في الحديث معى ، وذاك الاطـراء الذى يغدقه على ، أكثر مما كنت أتوقع • واستبدت بى الدهشـة وجلست مستمعا لا أحير جوابا ، محاولا أن أستبين السر في هذا التحـول المفاجىء . وفجأة سمعته يغير موضوع الحديث قائلا :

ـ ان سفر دالبى وقيامك بادارة العمل نيابة عنه وتوفيقك في ذلك ، كان موضع ملاحظة من السلطات العليا . ولقد سمعت بشيء من هذا القبيل من السكرتير الخاص لأحد الوزراء . لقد بدأ رجال القمة يتحدثون بالكثير عنك ويطرون نشاطك .

ـ لقد كانت لك جولاتك أنت الآخـر . وكانت لك مواقفك المشهودة في الكشف عن كثير مما يدور في الخفاء بالشرق الأوسط .

ـ وكان بوسـعى أن أقـوم بأكثر من هـذا لو تيسر لى من الامكانيات ما هو أوسع وأشمل . وأعتقد أنك تستطيع أن تقوم بأكثر من ذلك لأن امكانياتكم ليس لها حدود .

ـ ولكن ليس لهذا الموضوع ملف خاص لدينا . وقد تيسر لكم هذا الملف ، وهو أساس لا يستهان به .

ـ هذا صحيح . من هنا كان بوسعك أن تشترى منى هذا الملف لو كنت من الأجانب . أليس كذلك ؟ أن لديك من الوسائل

ما يعينك على ذلك . ان هذا الملف يمكن أن يصبح في حوزتك في مقابل مبلغ مناسب .

ـ هل تعنى أنه على ادارتنا أن تشترى هذا الملف من ادارتكم ؟

ـ قد يبدو لك هذا الأمر شاذا . انني أدرك ذلك . انه اجراء غير طبيعي . وما كنت لأقـدم على عرض مثل هذا الامر على أحـد غيرك ، أو على جهة أخرى مثل ...

ـ الروس مثلا .

وهنا تجهم وجهـه ولمعت عيناه غضـبا ، وهو يجيبنى محتجا :

ـ كنت بسبيل أن أقول مثـل البحرية قبـل أن تقاطعنى . وما دمت قد اخترت لنفسك هـذا الاسلوب الوقح فى تفـكيرك .. فما أظن أن دالبى لوكان في مكانك بمتبع هذا الاسلوب الصبيانى في تفهمه لعرض مثل هذا . ان لى لشأنا معك عند عودته .

ورأيت أنه قد أحسن اختيار ألفاظه وأجاد التعبير حتى شعرت أمامه بصغر شأني لما اتجه اليه تفكيرى عندما سقت الروس مثـلا ، وانه تعمـد أن يذكرنى باشـارته الى دالبى ، بأننى لست بأكثر من قائم بعمله أثناء غيابه . وأنه كال لى الصـاع صاعين عنـدما نقد أسلوب تفكيرى بأنه أسلوب صبيانى ، ليذكرنى بأننى يجب ألاينسينى منصبي المؤقت قدر نفسي . وتمالكت نفسي وأنا أصارحه قائلا :

ـ استمع الى ياروس . دعنا نتحدث بصراحة . انك بحاجة ماسة لمبلغ من المال لسبب ما . وأنت على أتم استعداد لبيع بعض المعلومات فى سبيل الحصـول على هذا المبلغ . غـير أنك لن تبيعها لأمثال الروس والصينيين ممن هم في أشد الحاجة اليها . ولكنك تتلفت حولك باحثا عن مشتر لا يضار ضميرك ببيعها اليه . ولا يعنيك بعد ذلك ماهو فاعل بالملف ، أيحتفظ به لنفسه قاعدة لعمل مجيد يقوم به ، أم ... انك تعرض للبيع شيئا لا تملكه ، على شـخص لم تكن تحبه . ان لدينا ستمائة من الملفات المفتوحة التى لم تتم فصولا ،

وبودى لو أصبحت هذه الملفات ٥٩٩ ، حتى ولو ام يكن في ذلك ارضاء لأحد .

وأتيت على ما تبقى في كأسي من شراب ، ونهضت منصرفا دون أن ألتفت الى الوراء . ولكننى كنت أستطيع أن أتخيل روس وهو يشد على غليونه بين أسنانه .

- ١٥ -

وخرجت الى شارع بورى لأستنشق هواء نقيا ، بعد أن جثم على صدرى جو النادى الثقيل ، وضيقى بهذه اللحظات التى قضيتها مع روس . لطالما كنت أضيق ذرعا بهؤلاء الناس من طراز روس ، وكنت أنقم على نفسى اذا ما تبسطت فى حديث معهم . ولطالما كان يلذ لى أن أشتبك معهم وأختلف .

وما أن جلست الى مكتبى ، حتى أقبلت أليس تنبئنى بأن كيتلى قد اتصل بى تليفونيا ، وأنها أخبرته بأننى سأكون بقاعة السينما الخاصة بوزارة الحرب فى تمام الساعة الخامسة ، « حيث تشاهد عرضا خاصا هناك » .

فأومأت برأسى موافقا ، وقلت لها ان تقرير روس فى طريقه الينا وأن عليها أن تتولى أمره ، وترفقه بتقريرنا . والتقطت ملفين من أحد ادراج مكتبى قائلة : « لا تترك أدراج مكتبك مفتوحة بعد ذلك ، ولا تستعمل اصطلاحاتك العسكرية ثانية في عملك هنا » . وولتنى ظهرها منصرفة ، وشيعتها بملاحظتى التى تستفزها .

ولما وصلت الى وزارة الحرب ، ودلفت الى حيث توجد قاعة العرض السينمائى الخاص ، وجدت جاويشا من البوليس الحربى واقفا ببابها . كما وجدت كارسويل ومورای وروس ينتحون جانبا

في ركن منهمكين فى حديث هام كما بدا لى • وكان منضما اليهم رجل من المدنيين ، قوى البنية عريض المنكبين أسود الشعر . والى جانبه كان يقف تشيكو ، الذى كان يتجاذب أطراف الحـــديث مع ميجور من قدامى الضباط .

وبدا لى أن روس هـــو القائم على أمر هذا العرض ، وحيـــانى عند قدومى وكأننا لم نلتق منذ اسابيع • وبعـــد ان اكتمل عقدنا ، وجه الينا روس تعليماته التالية :

ـ لن يذاع مع هذا الفيلم اية معـــلومات ، ولكننا نرحب بكل ما تبدونه من ملاحظات ومعلومات عما تشاهدونه .

ثم أوما الينا بالدخـول الى القـاعة قائلا لرقيب الشرطـة العسكرية :

ـ لا يسمح بالدخول لغير هذه المجموعة .

وسمعت الرقيب يقول :

ـ سيدى !

فالتفت الينا روس قائلا :

آه •• آسف ايها الزملاء • التدخين ممنوع كما تعلمون •

واطفئت الأنوار بالقاعة ، وجلسنا نشاهد عرض بضع مئـات من الاقدام لفيلم صامت مختلف الصور والحركة • وكانت معظم اللقطات لرجال تتراوح اعمارهم بين الثلاثين والخمسين وكانوا حسنى البزة وفى اتم زينة • ولم نستطع أن نبين من اوضاعهم ، عما اذا كان التصوير بعلمهم او بدون علمهم • وما ان اضيئت الأنوار ، حتى تبادلنا جميعـا نظرات ساهمة • ثم سألت روس ، « انى لكم هذا الفيلم ؟ اعنى ، ماهو موضوعه ؟ » ولم اكن انتظر أن أسمع منه صدقا •

ـ الحق أقول لكم ، اننا لا نعرف على وجه التحـديد زمن التصوير . ونحن نطمع في المزيد من هذه اللقطات . هل من أسئلة أخرى ؟

وكأنى به يريد أن يلقى في روعنا أنه قد أجاب عن سـؤالى اجابة شافيـة مقنعة • وران على الحـاضرين صمت مطبـق ، لم يعقب خلاله احد على تسـاؤل روس • ولم اجـد جدوى من اعادة الاستفسار لأننى كنت أعرف النتيجة مقدما . وآثرت الانصراف في سكون . وغادرت مبنى وزارة الحرب الى اسكتلنديارد، لمقابلة كيتلى .

ورأيت كيتلى واقفا بالدهليز • وكان يبـدو دائما أكبر من سنه ، رقيق الحاشية ، مما لا يجعل له مكانا بين رجال الشرطة . وكان دقيقا فى عمله وفى مواعيده وفى تنفيذه لما يصدر اليه ويصدر عنه من أوامر • وما أن رآنى حتى أسرع للقـائى ، وكان يحمل علبة للأفلام تبلغ ثمانى بوصات عرضا . وتقدمنى الى غرفة مكتبه ، وأوصدت الباب بعدا دخولى .

وبعد أن قدم لى قدحا من الشـاى ، وقام باشعال غليونه ، واستقر بنا المقام ، بدأ الحديث فى العمل قائلا :

ـ هذا المنزل رقم ٤٢ . لقد قام رجال الشرطة بكل ما يمكن أن يطلب منهم القيام به . بصمات أصابع وبقع دماء ... الى آخر ذلك من جمع الآثار والمتعلقات التى تتصل بمسرح الجريمة . وقمنا باجراء التجارب والتحليـلات والمضاهاة ، ولكننا لم نستطع ان نهتدى الى شيء .

فقاطعته قائلا :

ـ كيتلى ، ان وقتك ثمين ، وكذلك أنا . اننى أعرف جميع هذه التفاصـيل • ان كل ما أود ان تخبرنى به ، هو فيم كانت رسـالتك التى بعثت بها •

ـ مجرد اجراءات .

وأدركت انه لا جـدوى من أن أحصـل منه على ما ابغى ، وان على أن أعتمد فى هذا على مجهودى الخاص ، وأن أتحرى كل شيء بنفسى ، لأن التعـاون مفقـود بين جهات الاختصاص المختلفة ، بنـاء

على ما ترمى اليه كل جهة من نسبة الفضل اليها • لقد اسهب فى سرد تفصيلات ما قام به رجاله من بحث وتنقيب بالحديقة وبالمنزل ، حتى أسماء الكتب لم يضن بها على . ولكنه ضن على بطرف الخيط الذى يمكننى به أن أتبين معالم دربهم الذى يسلكون . حتى علبة الأفلام التى كانت بيده ووضعها أمامه على المكتب ، لم يرغب فى أن يطلعنى على شىء عنها ، ولما سألته عنها راوغ وداور ولم يشف غليلى .

غير أننى وفقت فى ان اتبين من حديثه ، ان الفيلم الذى عرضه روس علينا بوزارة الحرب ، كان من بين ما عثر عليه فى المنزل رقم ٤٢ • ولما ادرك كيتلى منى هذا ، اسقط فى يده ، وانتهزت فرصة ارتباكه ، وألقيت عليه محاضرة فى ضرورة التعاون بيننا ، وصارحته بأن شيئا ما لن يخفى على ادارتنا ، وأن التعاون معنا قد يكون أجدى من التعاون مع مخابرات روس .

ويخيل الى أن الرجل اقتنع بمنطق حديثى . اذ انه بعد ان أطرق قليلا ، التفت الى بنظرات متسائلة عما أريده منه على وجه التحديد . ولما كنت فى غنى عن أن يردف نظراته بأقواله ، فقد رأيت أن أعفيه من ذلك قائلا :

ـ أريد أن اعرف كل شىء عما عثرتم عليه بالمنزل أو بالحديقة .

ورأيته يخرج شريط التسجيل من علبة الافلام ويثبته فى جهاز التسجيل الكبير الموجود بالمكتب • وانبعث من الجهاز صوت مبهم تجرد من كل معنى ، سجل عن بعد فى حيز مغلق •

ـ أصوت حيوان هذا ، أم هو ترجيع لرنين معدنى ؟

ـ انها أصوات بشرية كما يقولون .

وحاولت أن اتبين من هذه الاصوات المنبعثة من جهاز التسجيل طبيعتها . هذا النباح والعويل ، وذاك البكاء الفزع ، وهذا الثغاء والنهيق والعواء النائح ، لم يكن من اليسير مجرد الاستماع اليها ، وليس فقط تحديد معالمها وكنهها • فقلت لكيتلى « لم استطع أن

أتبين من كل هـذا شيئا . ولكننى سـاحمل الشريط معى واعيـد الاستماع اليه عسى أن اخرج من ذلك بنتيجة ما ؟
ولم يمانع كيتل فى ذلك ، وودعنى شاكرا •

- ١٦ -

لم أتوجه الى مكتبى فى صباح اليوم التالى ، حيث آثرت ان ابتاع بعض حاجياتى بنفسى من السـوق ، وعرجت على محـل ليد لتناول قدح من القهوة •

وبدا لى المكان مظلما ، بالنسبة لضوء الشمس السـاطع فى الخارج • واتخـذت لى مقعـدا فى ركن من الكافتريا ، اقـرأ الديلى اكسبريس وارتشف قهـوتى فى تراخى الكسل • ورحت اتصفح الصحيفة متنقلا بين أبوابها المختلفة ، ناعما بجلستى الهادئة ، وبتـدخين سجائرى المفضلة فى هذا الركن البعيد عن كل ضوضاء وصخب .

ومكثت فى جلستى هذه قرابة النصف ساعة ، بعيدا عن مكتبى وعما يشغلنى فى الصباح من أعمال روتينية ومن اتصـالات تليفونية ومن هذه التقارير الواردة من وزارة الدفاع بواشنطون (من مدير العمليات الخاصة وجهاز المخابرات للجيش الامريكى) ، التى كانت تعرض على فى غالب الايام . كما كانوا يبعثون الينا ، فى كل أسبوع ، بموجز لما يرون اطلاعى عليه مما يعرض على رئيس الولايات المتحدة من نتائج نشاط المخابرات . وذلك كله ، علاوة على ما يعهد لى من ترجمة لفقرات من الصحف الاجنبية ــ كالبرافدا وغيرها من صحف شيوعية لبلاد أخرى .

ولقد تراكمت كل هذه المواد خـلال الأيام القليلة الماضية . ورأيت انه لا مانع من أن تزداد هـذه الحصيلة يوما آخر • واستمرت جلستى الهادئة ، وأرسلت فى طلب قدح آخر من القهوة ، وتركت

نفسي على سجيتها ، فاضطجعت في مقعـدي مستريحا ، منطلقـا مع أفكارى التى تركت لها العنان .

ودخلت من باب كافتيريا الليد الخشبى القديم ، فدخلت بذلك فى حياتى بهدوئها وشعرها الفاحم ونظراتها الخطرة . ورأيتها تقف لحظة حتى تألف عيناها ظلام المكان . ثم راحت تتلفت يمنـة ويسرة فى تؤدة وثبات ، حتى استقر رأيها على الجلوس الى المنضدة الصغيرة المستديرة التى كنت أجلس اليها . وطلبت لنفسها قدحا من القهوة وقطعة من الكرواسنت . وتأملت وجهها القـوى التعابير ، وعينيها الناعستين الجميلتين كالمأخـوذ ، وشـعرت بأننى أكاد أن أغرق فى أعماقهما دون أن أستطيع لسحرهما ردا . وكانت تعقص شـعرها الاسود الفاحم فوق رأسها ، فبدا كتيجان الآلهة تعلو وجهها الحازم فى سمو واعتداد بالنفس . وراحت ترتشف قهوتها على مهل ، بشفتين تمسان القدح فى رفق الحنان .

وكانت ترتدى ثوبا أسود مما ترتديه النساء فى حفلات الكوكتيل والسهرات الليلية ، يكشف عن ذراعين يتسقان مع اليدين الرقيقتين بأظافرهما المتخذة لونها الطبيعى . وجلست أتأملها ، حتى وهى تقضم بأسنانها اللؤلؤية قطعة الكرواسنت . واعجبنى منها أنها لم تحاول أن تصفف شعرها بيدها كسائر النساء المتأنقات ، أو تخرج مرآتها مع قلم أحمر الشفاه لتعيد تخطيط شفتيها ، أو أهداب عينيها . وفجأة سمعتها تبدأ الحديث معى بتقـديم نفسها الى . انها جين تونيسين ، مساعدتى الجديدة فى العمل .

يا لأليس الماكرة ! انها لا يفوتها شىء من هذه الحيل . فلقد تذرعت بتسليم جين ملفا عاجلا ، مع مذكرة من تشيكو يستأذن فيهـا بالتغيب عن عمله حتى ساعة تناول الشاى . ومن شان تصرفها هذا أن يثير الغضب ، ولكننى آثرت ألا أبدأ عملى اليومى بما يعكر صفوه. ودعوتها الى تناول قدح آخر من القهوة ، فقبلت شاكرة . ثم سألتها :

ــ من أية ادارة قدمت الينا ؟

ـ اننى أتبع ادارتكم فعلا ـ كنت أشغل منصب ادارة الفرع فى ماكاو .

ولما تبينت ما بدا على وجهى من دهشـة ، افتر ثغرهـا عن ابتسامة رقيقة ضاعف من جمالها وعج عينيها . وقلت لها :

ـ لعلك غير راضية عن عودتك الى أوروبا ـ حتى ولو كان هذا فى أيام الصيف الجميلة . انى لأذكر مطعما فى ماكاو ، كان مقاما أعلى كازينو للقمار . وكان الراغبون فى المراهنات يسلمون السـاقيات ما يراهنون به من مبالغ ويتابعون نتائجها على اللوحة المعدة لذلك بالمطعم .

فعادت للابتسام ، وطاب لى ان أجلس فى مكانى هذا اتأمل تلك الابتسامات النقية التى يفتر ثغرها عنها . وحرصت على أن تشعرنى دائما بأنى رئيسها الأعلى . فقالت لى :

ـ لقد أتيتك ببطاقة نقلى .

ـ دعينا نلقى نظرة عليها .

وبدأت أصور لنفسى فى أى اطار وضعتنى أليس أمام مساعدتى الجديدة . ولم يكن لأليس أن تفعل شيئا من هذا القبيـل لأن ليد. ليس بالمكان اللائق لمثل هذا اللقاء . وقدمت لى جين تونيسين بطاقة خضراء . بطاقة مما يودع فى ملفـات الموظفين . واطلعت على البيانات المدونة بها ، لأعرف أنها من مواليد القاهرة ، منذ ستة وعشرين عاما، من أب نرويجى وأم اسكتلندية . وهى تتقن اللغـات النرويجيـة والانجليزية والبرتغالية والألمانية والفرنسـية كتـابة وحديثا . وتلم باللغات اليابانية والصينية وما شابههما .

ولا يوجد بالملف الخاص بخدمتها ما يحـول دون ترقيتهـا الى مناصب أعلى . وأعدت لها البطاقة شاكرا معلنا لها موافقتى عـلى التحاقها بالعمـل معى . وكنت راضـيا عن يومى وعن نفسى وعن جاسوستى الحسناء . حتى ولو لم تكن هى جين تونيسين ، ولم تكن هذه هى بطاقتها ، فانها لم تزل جاسوستى الحسناء الأولى .

واعادت البطاقة الى حقيبة يدها الصغيرة . فسألتها :
ـ بماذا تحتفظين بها ؟ ابمسدس صدفى المقبض من عيار ٢٢ ؟
ـ كلا . انى احتفظ به مثبتا الى رباط ساقى .
ـ حسن . ماذا تبغين للغذاء ؟

وعندما تصطحب معك فتاة جميلة فى لندن لتناول طعام الغداء فيجب أن تذهب بها الى مطعم ماريوتيرازا . وجلسنا الى مائدة بالدور الأرضى فى ظل أشجار الكروم الصناعية . وقدم لنا ماريو شراب الكمبارى بالصودا ، قبل ان يقدم لنا حساء العدس الذى أعاد لجين ذكريات أعوام ولت ومضت فى صقلية مع والدها عندما كانا يقومان بزيارة اصدقاء لهما كل عام لمناسبة الاحتفال بعيد سانت جوزيف فى ١٩ مارس من كل عام . وسمعتها تقول حالمة :
ـ يا لهذه الأيام الخوالى فى ربيع الشمس المكتمل الدفء والحياة

ونعمنا بوجبة دسمة طيبة متعددة الألوان . ولاحظت أنها لم تدخن عندما اتانا ماريو بقدحين من القهوة السوداء . ولكن ، أولا يمكن أن يكون لهذه الفتاة نقائص ؟ أو يمكن أن تكون كلها فضائل فى فضائل ؟

ورأى ماريو أننى مقبل على مغامرة غرامية لها شأنها ، وأتانا بزجاجة من شراب الأستى الفوار المثلج « على حساب المحل » . وقال لى وهو يصب ما تبقى بالزجاجة فى كأسى ، « كل شىء على ما يرام ؟

بكل تأكيد ، فان كل شىء كان على ما يرام . الخمر وجين . لقد تآمرنا على اشاعة روح من الرضا والشعور بحسن الحال فى نفسى . وساندتهما فى ذلك أشعة الشمس النافذة من ظلال الكرمة لتنعكس على وجهها الجميل فتزيده اشعاعا مع ابتسامتها . وصحوت من أحلامى على ضوضاء بالخارج . كان سائق احدى السيارات فى مناقشة حامية مع أحد رجال المرور . وبينما كنت أتأمل حركة المرور بالشارع

المزدحم ، استرعى انتباهى وقوف سيارة اجرة على بعد بضع ياردات منا وقد غادرها رجلان ، واصلا سيرهما مشيا على الأقدام من الناحية الاخرى لها • واستطعت ان الحهما بقدر ما اتاحته لى حركة المرور ، وقبـل أن تحجبهما السيارات فى غدوها ورواحها •

وكان أحد الرجلين فى طول قامة جاى وعرض منكبيـه . وكان الثانى صورة من دالبى حركة وروحا . ووجـدت نفسى فجاة وقـد استيقظت كل حواسى وتنبهت مشاعرى وشدت اعصابى •

- ١٧ -

لأول مرة منذ شهور تفتح نافذة غرفة مكتبى على مصراعيها• ولأول مرة منذ استقرارى بهذا المكتب ، تصل الى سمعى أصوات ضوضاء الشارع وضجيج حركة المرور به • وكانت أليس قد خلقت مهمة بالخارج لجين لتبعدها عن المكتب ، ريثما تأتينى بالملف الحقيقى لجين تونيسين • وقمت بمراجعته ووجدته يكاد أن يطابق البطاقة التى اطلعت عليها من قبل . اللهم الا من بعض التفصيلات التى لا تتعارض مع البيانات الأساسية عن كل ما يتعلق بهذه الفتاة • ووجدت توصية بذيل الملف بعدم اقحامها فى آية مهمة تتعارض مع ما يجب عليها من ولاء للنرويج • وبعـد أن انتهيت من ذلك ، قالت أليس :

ـ هل تود أن تطلع على آخر بيانات من كارسويل ؟

ـ أخشى الا يكون ثمة متسع من الوقت لذلك •

وفى الحق أننى كنت قد ضقت ذرعا بكارسويل وبعمل كارسويل • ولولا أننى كنت لا أريد أن افقد موراى وأرغب فى الانتفاع بخدماته . لاتخذت اللازم لنقل كارسويل •

وأقبل كارسويل ، فقلت له وهو يتهيأ للجلوس :

ـ كيف تسير الأمور ؟

ـ على ما يرام •

وفتح الباب ، فاذا بها اليس تعود لتسترجع ملف جين ، وتعيد كل شيء الى مكانه ، كما دابت على ذلك منذ ان حللت بفرقة دالبى • وظل كارسويل يثرثر حتى كدت أن أنهض مغادرا مكتبى ، لأتخلص من ثرثرته التى خيل الى أنه لن يكف عنها • ويلوح ان أليس قد فطنت لما يجول بخاطرى ، اذ رأيتها ترمقنى بنظرات مشفقة • وعندئذ اتصل بى تشيكو عن طريق الخط ؟ • وفى الوقت نفسه سمعت رنين التليفون الخارجى • ورفعت السماعتين ، وبدأت الأحاديث التليفونية •

ـ أين انت الآن ؟ من أين تتحدث الى ؟ وماذا تفعل بربك فى جرانتهام ؟

ـ دعنى اتحدث اليه يا سيدى • انه لم يفعل شيئا بشأن طلبات الأفلام ، التى يجب أن يبعث بها اليوم » •

ـ ليس لك عمل فى جرانتهام • من الذى اعتمد استمارة سفرك ؟ آه ، أنت • اذن فعليك أن تتحمل نفقات سفرك •

وفى الوقت نفسه سمعت كارسويل يقول : « ان موراى ممن يمكن الاعتماد عليهم لو أوليته ثقتك • اننى أقدره ، وأحيى فيه اقدامه » •

ـ ترى ماذا تظن عما عساه أن يكون لى من دور فى مسرحية حياتك ؟

ـ اجل يا سيدى ، انى اعرف أنك الرئيس الأعلى ، ولكننى عندما رايت يا سيدى •• »

ـ « أجل ياتشيكو ، أجل • لقد أحسنت لأول مرة • احسنت فى قولك أننى رئيسك الأعلى المسئول • ترى لو كان دالبى موجودا ـ كنت تتصرف هكذا ؟ »

ـ لقد التقيت بدالبى يا سيدى ، وتحدثت اليه • وسأقابله ثانية مساء اليوم » •

ولم يزل كارسويل مصرا على أن يعرض على أوراقه • ولم يعفنى من ذلك بالرغم من انشغالى بهذه الاتصالات التليفونية • ورأيته ينهض

واضعا أمامى بضع صفحات من الاوراق على مكتبى ، وهو يقول : « ان هذه الأرقام ليست الا مستخلصا موجزا لما انتهيت اليه من نتائج ، لأننى لا أود ان أشغلك بالتفصيلات الدقيقة • انك لا تريد الا الاطلاع على النتائج لا المقدمات • وأعتقد انها نتائج مرضية تحليلية مقنعة » •

ـ ليس من شانك أن تقابل دالبى ، ولم يكن لك أن تلتقى به •

ـ لم يكن من الصواب يا سيدى ، ان تقول انك الرئيس الأعلى فى خط مفتوح •

ـ ليس لك شأن بهذا يا أليس ، اخرجى من الخط •

ـ اذن فهى نتائج تحليلية مرضية ، ولكنها ليست بأكثر من الهام بما هو آت أو على وشك أن يحدث •

ـ ليس لك أن تتخطانى كرئيس مسئول • ليس فى سلوكك هذا شىء من العسكرية أو النظام المرعى •

ـ لا يجمل بك أن ترفع صوتك بهذا على خط مفتوح كما قلت لك ، فثمة جهات أخرى ستستمع الى هذه التصريحات •

وكان كارسويل لم يزل مواصلا شرحه لما وضعه أمامى من أوراق • « اننى واثق من أن مجرد اطلاعك على هذه النتائج سينبئك بالكثير ، لأنك شديد اللماحية سريع البديهة • وان اعدادها ليتطلب مهارة وتدريبا وتدريبا خاصا » •

ـ لقد تعرفت على هذا الرجل يا سيدى • وذلك فى الفيلم الذى شاهدته فى وزارة الحرب • انه صديق لابن عمى ، ياسيدى • وهـو واسع الباع فى علم الكيمياء • سأقابل دالبى الليلية ثانية • وهو يرى اننى يجب أن اتخلف هنا لبضعة أيام أخرى • وكان دالبى قد سألنى الا أخبر بهذا أحدا ما ، ولكننى مضطرا ان أصارحك بالأمر كله حتى لا تتساءل عن السر فى غيابى • أضف الى ذلك اننى لم أكن قد أعددت بعد طلبيات الأفلام » •

وفى هذه اللحظة ، طوى كارسويل أوراقه وأعادها للملف الخاص

بها قائلا : « سيقوم موراى باستكمال هذه الاجراءات • غير اننى ارجو موافقتك على نسبته الى «القسم المخصوص» التابع لشرطة العاصمة • وكنت أريد الاتصال بك فى الاسبوع الماضى ، ولكن موراى قال لى اننا لا يمكن ان نبدأ عملنا قبل أن يكون تحت يدنا النتائج الاحصائية المناسبة • ولقد وثقت أخيرا فى اعداد هذه البيانات » •

كيف يمكن ألا يفطن كارسويل الى أن لى أذنا واحدة وعقلا واحدا• وفى الوقت نفسه سمعت تشيكو يقول على الخط : « هل أتصل بك تليفونيا باكر بعد اتصالى بدالبى يا سيدى ؟ » ، ودخلت أليس الغرفة قائلة : ان جين هنا يا سيدى ، » وحاولت أن تخفى ملف جين السرى بين غيره من ملفات » •

ـ أهلا بسيدتى الجميلة •

ـ كلا يا سيدى ، لا تضع السماعة • اننى لم أفرغ من حديثى معك بعد » •

ـ لقد عانيت كثيرا فى المهمة التى عهد الى بها يا اليس • وقالوا لى انه لا يمكن اعداد المطلوب قبل صباح الغد » •

ـ اليك مقعدى ، وان كان غير مريح كما يجب •

ـ ولكنهم قالوا ان كل شىء سيكون معدا فى الساعة الرابعة والنصف • وهكذا لا يمكن التعويل على مواعيدهم •

ـ ان صديق ابن عمى هذا يا سيدى ، يعد من كبار الكيمائيين الحربيين • وقلت اننى لو تحدثت اليه ••• »

ـ كلا • لقد قضيت يومى جالسة •

ـ كيف تأتى لك أن تلتقى بدالبى ؟ كيف تم هذا اللقاء ؟

ـ هل أكلف موراى بالبدء فى العمل يا سيدى ، على أن يحرص على عدم اثارة الحفظة على القانون ؟

ـ هل حددوا ساعة الاستلام فى الصباح يا جين ؟

ـ كان ذلك مصادفة • وفى مكان شنيع • حيثما تلتقى بدالبى دائما •

ـ لم يسبق لى أن زرت جرانتهام من قبل .

ـ ذكره يا سيدى بطلبيات الأفلام . انه الوحيد الذى يلم بوسيلة الحصول عليها .

ـ كلا ، ان هناك مقعدا خاليا لو كنت أرغب في الجلوس .

ـ حدد لى مكان اللقاء .

ـ سأفحص جميع النتائج معك اذا رغبت فى ذلك .

ـ هل أنهى المحادثة يا سيدى ؟ ان الساعة قد جاوزت الخامسة والنصف .

ـ فليكن . اتصل بى فى مثل هذه الساعة من الغد . وسأقوم بنفسي باعداد طلبيات الأفلام . حظ سعيد يا تشيكو » .

وهكذا دار الحديث الشخصي والتليفون فى غرفة مكتبى فى آن واحد كما نقلته لك . وهكذا كان يصر كارسويل على أن يعرض على نتائجه وبياناته ـ وهى البالغة الأهمية كما يقول ـ بينما كنت مشغولا بحديثى التليفونى . وهكذا لم أستطع أن أناقش كارسويل فيما كان يعرضه على كما يجب . وقد اعتمدت فى موافقتى على ما سألنى اياه على حسن تنفيذ موراى للأوامر . وغادر كارسويل الغرفة متأبطا ملف بياناته الاحصائية . وفى يوم الاربعاء ، قمت بانجاز ما تأخر من عمل تشيكو المستعجل . وبعد أن تناولت قدحا من القهوة فى الفيتزروى ، عدت الى غرفة مكتبى لأجدها مضاءة . فعجبت من ذلك ، ورأيت أن أتوخى الحذر فى دخولى . وأدرت مقبض الباب النحاسي بهدوء وعلى مهل، ثم دفعت الباب لأجد أمامى دالبى يحيينى مقدما لى كأسا من البراندى .

وجلس دالبى الى مكتبه ، وكان لدى الكثير مما أريد الاستفسار منه عنه ، ومما أريد أن أخبره به . ورأيته يدور بعينيه فى غرفته وكأنه تغيب عنها دهرا . ثم استقرت عيناه على وجهى ، وتبادلنا نظرات صامتة معبرة . وأخيرا بدأ الحديث قائلا بصوته العميق ، « ألم يسبق لك ان رأيت قنبلة تنفجر ؟ » وكنت أنا الذى أريد أن أسأله عن الكثير . وها هو يعكس الوضع ويبدأنى بالسؤال . ولما حركت رأسى نفيا استطرد قائلا :

ـ انك بسبيل أن ترى ذلك الآن • فقد طالب الوزير المختص بأن يحضر اجراء التجربة الامريكيـة التاليـة • ان وزارة الدفاع الامريكية تزعم أنها توصلت الى ضغط الهزات الارضية الناشئة عن هذه التفجيرات• كما يقولون انهم سيضاعفون بهذا التفجير النتائج التى حققها الروس • ولقد أخبرته بأننا أمسكنا بطرف الخيط عن بعض العلماء البريطانيين الموجودين هناك » •

ـ بعضهم فعلا ، اذا صدقنا ما يقوله كارسويل • اذ يزعم انه أمسك بالخيط عن ١٨ من خمسين ، بما فيهم ١١ من مساعدى المعامل • هذا اذا كان ما يقوله صحيحا •

ـ لقد علمت من أليس بكل ما كان بينك وبين كارسوبل • يمكنك أن تستغنى عن خدمات كارسويل هذا ومساعده ، فلدينا ما يكفينا •

لقد أزاح دالبى عن كاهلى عبء الكثير • يا له من رجل خلق لمثل هذا العمل فعلا • فها هو بعد غيبة شهرين يعود فى منتصف الليـل دون سابق اخطار ، ليبدأ العمل ويصدر قراراته ولما يخلع عنه بعـد ثياب السفر • واستطرد قائلا :

ـ ان هـــذه التجربة ستكون فى يوم الثـلاثاء • وانى لذاهب لحضورها • يمكنك الاستعانة بمن يساعدك اذا رغبت فى هذا •

وتساءلت فيما بينى وبين نفسى ، عما اذا كان قد أحيط علما بنقل جين كمساعدة لى ، وعما اذا كان من حقى أن تكون لى مساعدة فى حالة عودته لتسلم مهام منصبه • وسألته بدورى :

ـ هل تريد أن يرافقنا تشيكو ؟

ـ أجل • اتصل به تليفونيا ، ليعد لنا تذاكر وجوازات السفر •

ـ ان الســاعة الحادية عشرة والنصف • هل تعــرف أين يمكن الاتصال به ؟

ـ وأنى لى أن أعرف ؟ من هو المسئول عن العمل هنا فى الاسابيع الماضية ؟ أليس لديك رقم تليفونه ؟ اننى لم أقابله منذ أسابيع •

ـ انه في جرانتهام . أو ...

ـ ومن كلفه بالسفر اليها ، ولماذا ؟

وكنت في حيرة من أمري . ولم استطع ان اتبين ماذا يرمى اليه دالبى من هذا . ولكنني قررت أن أواصل تجاهلي قائلا : « كان هناك ما يستدعى سفره ، ولعدم وجود من يوثق به غيره . انه سيعود في مدى يومين على الاكثر » .

ـ فليتم انجاز مهمته . يمكن أن تقوم اليس بما كنا نبغيه منه .

واومأت برأسى موافقا . غير أنى بدأت اشك لأول مرة أن ثمة من الأمور ما لا أستطيع له فهما . وآثرت أن اسلم بالأمر الواقع وأن احنى رأسى أمام ما يجرى من تيارات في الوقت الحاضر .

ـ ١٨ ـ

كانت مجموعة جزر توكوى المرجانية أشبه بفتات بقايا طعام افطار على غطاء مائدة ازرق اللون . وكان لكل جزيرة منها خلجانها الخضراء التي صمدت لزرقة مياه الباسفيك الطاغية وهى تضرب صخورها متلاطمة في غضب ، وترتد عنها مزبدة وقد عز عليها ان تقاومها بشواطئها وتقف حجر عثرة في طريق انسيابها . وكنت ترى حول هذه الجزر ، هنا وهناك ، مخلفات السفن الغارقة والدبابات المحطمة ، منذ عام ١٩٤٤ ، حينما تعرضت هذه المعدات لغارات الأعداء .

وقد شاهدنا كل هذا وغيره ، عندما كنا نحلق بطائراتنا الهليوكبتر فوق الجزيرة التي قدر لنا أن نهبط فيها . وما أن استقرت بنا الطائرة على الأرض ، حتى أسرعت الينا سيارة جيب بيضاء اللون ، كان بها اربعة رجال من الشرطة الجوية بملابسهم الكاكى وعلاماتهم المميزة وشاراتهم المثبتة الى صدورهم .

ورأينا عجبا • رأينا كيف صارت اليه هذه الجزيرة التي وقع عليها اختيار الامريكيين من بين مئات هذه الجزر المهجورة ، وكيف زودوها بمطار ، وملاعب ، ودور سينما ، وكنيسة ، وحوانيت ، ونوادى للضباط، ومكتبة ، وصيدليات ، ومكتب بريد ، ومولد كهربائى ، الى آخر ذلك مما جعلها قطعة من العالم المتمدن المتوفر فيه كل اسباب الحياة العصرية ووسائل المعيشة المريحة • وذلك كله فى فترة لم تتجاوز التسعين يوما• وقد بلغ بى اعجابى بهذه الجزيرة المستحدثة الاساليب أننى تمنيت للندن مثل هذا الاعداد والتجهيز • ولقد ثبت كل منا ـ دالبى وجين وانا ـ على صدره شارة من البلاستيك بها صورته الفوتوغرافية واوصافه ، مع حرف ك بعرض الشارة • وقد خول لنا بمقتضى هذه الشارات حق الطواف باى مكان فى الجزيرة ، بما فى ذلك الدخول الى ارض المعامل السرية •

وقضينا الساعات الاولى فى القاء نظرة عامة على هذا المشروع الضخم • وقد اصطحبنا فى جولتنا ميجور من الجيش تعى ذاكرته كل التفصيلات والأرقام • وقام بايضاح الكثير عن القنبلة المزمع تفجيرها • واسهب فى الحديث عن اليورانيوم وعن البلوتانيوم او ٢٣٥ ـ ى ، وعن دقائق التفجيرات النووية وكل ما يتصل بها • وكان كلما انتهى من فقرة ، تطلع الينا وكانما كان ينتظر منا أن نصفق له •

وانتقلنا الى جزيرة اخرى وقع عليها الاختيار لتكون مكانا لتفجير القنبلة • وكانت الجزيرة تعج بالاجهزة والمعدات • وتولى الميجور شرح الكثير عن طبيعة كل منها • كما زرنا برج الانطلاق الذى بلغ ارتفاعه أكثر من ٢٠٠ قدما ، وكان محاطا عند قاعدته بلافتات كتب عليها بالحروف الكبيرة كلمة « خطر » وتحتها زيادة فى التأكيد على الطريقة الامريكية عبارة : « متفجرات شديدة » •

وكانت جولتنا الثالثة ، فى المكان الذى حدد لعقد الاجتماع برئاسة باترزباى • وكنا اربعة عشر ، جلسنا حول منضدة مستطيلة ، وامام كل

منا ورقا أبيض وقلما جافا وكوب ماء مثلج • وكنا جميعا فى لهفة لنسمع باترزباى يبدأ الحديث • وبعد اصداره لبعض الاوامر الشكلية ، وجه الينا الحديث قائلا :

ـ حاولوا أن تكونوا أكثر تقاربا وتفاهما • بمعنى أن تصــوروا لأنفسكم انكم تعرفون بعضكم بعضا •

ونهض ضابط الاستعلامات الذى طاف معنا بالموقع الى سبورة رسم عليها دائرة ، كتب فى داخلها (يورانيوم ٢٣٥ « أو بلوتونيوم ») • ثم كتب فى أعلى السبورة من اليمين « ١٦ يوليو سنة ١٩٤٥ » • وبعدها كتب « هيروشيما ، ٦ أغسطس ١٩٤٥ » تحت التاريخ الاول • وأضاف الى هذه القائمة « نجازاكى ، ٩ أغسطس » • وبعد ذلك استطرد فى شرحه الفنى العلمى الى أن قال : « ونظن أن الروس قد فجروا هذا النوع من القنابل فى عام ١٩٤٩ » • وذلك بعد مقدمات فنية عن تطـورات صناعة القنبلة الذرية • واستمر يخطط على السبورة ويكتب مختلف التواريخ ، منتقلا من شرح الى شرح ومن تعليق الى تعليق ، ومن اليورانيوم الى البلوتونيوم الى قنابل الهيدروجين الشديدة الانفجار ، الى آخـر هــذه التطورات العلمية التى شغلت بها الدول الكبرى من عام ١٩٥٢ • ورأيت السبورة وقد غطتها الدوائر والخطوط والارقام والتواريخ والمصطلحات ، حتى بلغ الميجور من شرحه المرحلة التى حضرنا من أجلها هذا الاجتماع بجزيرة توكوى ، فراح يمحو بعض الارقام والحروف ويكتب أخرى بدلا منها ، مواصلا شرحه الذى ملك منا الالباب ، واثار فى نفوسنا الدهشة والاعجاب • وذلك لأن ما كان يلقيه على مسامعنا فى تلك اللحظة بالذات، من الحقائق المذهلة المروعة • ان هذه القنبلة التى قدمنا لنشهد تفجيرها تبلغ فى قوة تدميرها ٢٫٥٠٠ ضعف قوة تدمير قنبلة هيروشيما • وتأملت من حولى من طرف خفى ، فوجدت أن بعضهم قد فغر فاه دهشة وهــو يصغى لآثار هذه القنبلة وما تلحقه من دمار يمتد أثره الى مئات الاميال، حتى لا تكاد أن تبقى على شىء من مظاهر الحياة ، ولا تذر جمــادا فى

صورته التي صاغه فيها الأنسان • انها ستهلك الحرث والنسل وتفنى الوجود

ونهض باترزباى واقفا ، بعد أن جمع الميجـــور أوراقـه وعاد الى مقعده • وبدأ يلقى على مسامعنا محاضرة طويلة عن الاجراءات الدفاعية الصادرة لكل عدوان من الجانب الآخر ، وما يعد من احتياطات أمن وقائية للتخفيف من آثار هذه الاسلحة الفتاكة • ودخل فى تفصيلات مثيرة شدت اليها انتباهنا ، وتتبعناها فى انصات وتدبر • وانتهى الاجتماع بتشكيل لجـان فرعية توالى دراسة كل التفصيلات والاجراءات • وكانت لجنتنا مؤلفة من سكيب هندرسون والليفتنانت دولوبوفسكى وجين ، بينما كان على دالبى أن يجتمع فى جلسة سرية بمساعدة باترزباى • واقترح سكيب أن نذهب الى جناحه القريب من البحر بالمعسكر ، حيث ننعم بجهاز تكييف الهواء، وبمنظر البحر ، وبكؤوس من الويسكى وغـيره ، تلطف ما نعانيـــه من حرارة الطقس •

وبعد أن قدم لنا سكيب كؤوس الويسكى المثلج ، ورحب بنا فى جناحه ، لاحظت أنه ينتظر منى أن أبدأ الحديث • ولم أخيب ظنه :

ــ ان الامر لا يعدو أننى أصبحت من يعهد اليه بالكشف عن الجرائم الغامضة ، حتى يمكن أن تطلق على بحق أننى خبير الجرائم التى لم يهتد فيها الى حل ــ فهل يستدعوننى كلما وقعت بين أيديهم جريمة لايجدون لها حلا ؟

ــ وتقوم بكشف الستار عن معمياتها ؟

ــ كلا ، بل أنشىء لها ملفا وأشرع فى تقصى آثارها . ويظل ملفها مفتوحا •

وقدم لى كأسا آخر ، فتناولته منه وأنا أتأمله قائلا : لعلك أتيت هنا ببعض الملفات عن هذه الظاهرة • وكنا متفاهمين بأعيننا بأكثـــر مما يمكن أن نتفاهم به بالالفاظ • وجلس على حافة فراشه وفتح حافظة أوراقه قائلا : لا يمكن أن أعطيك صورة صحيحة كاملة عن هذا الموضوع• غير أنه مما لا شك فيه أننا فى وضع لا نحسد عليه • فما أن نوفق فى

الكشف عن جديد فى معاملنا ، حتى يذاع أمره ويعرف كنهه فى الناحية الاخرى ٠

ـ بمعنى أن هذه الظاهرة مركزة في المعامل ؟ اذن فالهدف هو المعلومات العلمية على وجه التحديد ؟

ـ هذا ما يبدو فى الوقت الحاضر على الاقل ٠

وكانت جين جالسة في سكون واجمة ٠ وكانى بها كانت تحاول أن ينطبع هذا الحديث فى ذاكرتها ٠ وسمعتها تعود من تاملاتها لتشاركنا حديثنا قائلة :

ـ انك تقول في الوقت الحاضر على الاقل ، فهل يعنى هذا أن هذه الظاهرة سيستشرى أمرها ٠ وكيف ؟

ـ انها في ازدياد طبعا ، وانها لتزداد بصورة تقض مضجع كل معنى بالامر وتثير قلقه ٠ هل يكفيك هذا ؟

وكان السؤال بمثابة الاجابة المفحمة ٠ ولكن جين عادت لتسأله بدورها :

ـ متى بدأت تشك في أن هناك أكثر من منفذ لهذه الظاهرة ؟ انها عملية متشابكة الخيوط متعددة الجنبات ، انها ظاهرة مركبة ٠

ـ مركبة ؟ انها مركبة ومركبة ٠ انها شبكة عريضة متعددة الخيوط ٠٠ ان أذرعتها لتمتد كالاخطبوط ٠

ونهض دولوبوفسكى يعيد ملأ الكؤوس وتوزيع قطع الثلج ، وقدم سكيب سيجارة لجين ، وأشعل لنفسه أخرى وهو يقول :

ـ الثغرات الاولى ٠ أجل ، خيوط الشك الاولى ٠

وعاد دولوبوفسكى الى مقعده ٠ ولاحظت مما تبادله من نظرات مع سكيب أن له شأنا كبيرا ٠ وفهمت أنهما يريدان أن يستمعا لما لدينا من معلومات أكثر مما يدليان به الينا ٠ وقد يكون لهما عذرهما فى ذلك ، لأننا لم نخبر الامريكيين بأننا نعانى من هذه المشكلة من قبل ٠ وكان المتحدث فى هذه المرة هو دولوبوفسكى :

ـ لن يكون من اليسير تبيان ذلك مع هذه المؤتمرات الدولية التي يتوالى عقدها • ان للعلماء لغة واحدة متعارف عليها • كما أن الاكتشافات العلمية تتقارب وتكاد أن تسير جنبا الى جنب • وأعتقد أن فترة ثمانية اشهر كافية لتغطية سؤالك عن الثغرات الاولى التى اتصلت حلقاتها • ومن الجائز أن نعود ببدايتها متفرقة الى ما قبل ذلك ، ولكنها الآن أصبحت تشمل البرنامج العلمى كله ـ حتى غير العسكرى منه •

واستطرد بنا الحديث الى بعض ما يواجهنا فى المملكة المتحـــدة ، حتى نسمع منهما المزيد • وبعد أن شعرنا بأنه ليس هنالك من مزيد ، نهضنا مستأذنين فى الانصراف • وودعنا سكيب الى الخارج ، حيث واصلنا سيرنا ـ جين وأنا ـ فوق الرمال التى بدت حمراء تحت اشـعة الشمس الغاربة ، والتى تركت جزيرتنا فى طريقها الى الهند •

وسرنا يدا فى يد لننعم بنسيم هذه الساعة من النهار على رمال الشاطىء حوالى النصف ميل • وكانت وجهتنا نادى الضباط حيث يمكن أن نقضى بعض الوقت فى استرخاء ، نستريح خلاله من عناء اليوم وجهد الانتقال •

وجلسنا الى المائدة التى أعدها الغـــلام الساقى لنـا فى ركن من النادى ، وقد انعكس ضوء الشمعة الراقص على وجه جين ، فأضفى عليه جمال الغموض الذى يناسب شعرها الاسود وعينيها الجميلتين • وسمعتها تقول لى :

ـ يلوح لى أنه كان لك سابق معرفة بسكيب •

أجل • اننا أصدقاء قدامى •

ـ لقد أعجبت به • ولكنه بدا لى متحفظا وكأنه ••••

ـ هيا افصحى عما يجول بخاطرك ، وكأنه ماذا ؟

ـ اننى فعلا لا اعرف كيف أعبر عما يدور بخلدى •

ـ أم لعلك فى حرج من هذا ؟ اننا نستطيع أن نتبادل الراى فيما يستجد من امور ، لنستفيد بذلك ؟

ورأينا يدا تمتد لترفع الشمعة ، ورفعنا اعيننا لنرى دالبى واقفا يشعل سيجارته منها . وكان يرتدى قميصا من قمصان هاواى الحمراء وسروالا قصيرا . مما جمله يبدو كان امريكى من الموجودين معنا في هذه الجزيرة . فقلت له :

ـ لقد تأقلمت فاجدت وأصبحت أمريكيا من مواطنى جزر هاواي ،
وجال بعينيه باحثا عن مقعد وهو يقول لنا :

ـ أرجو ألا أكون متطفلا عليكما ؟

ولم ينتظر منا الاذن بالجلوس . ووضع مقعده بجوار جين . ولما استقر به المقام قلت له :

ـ كانت جين بسبيل أن تدلى الى برأيها عن سكيب هندرسون .

ـ اننى أتوق الى الاستماع لرأيها هذا .

فانبرت جين قائلة :

ـ لقد خيل لى أنه يخشى شيئا ما .

فقلت لها :

ـ يخشى شيئا ما ؟ هل تعنين أنه كان خائفا منى ؟

ولكم وددت ألا تواصل جين حديثها هذا . لأننى كنت لا احب ان اطرق مثل هذه الاحاديث فى وجود دالبى . وتمنيت لو خاضت جين فى حديث غيره . انها لا تعرف شيئا عن سكيب هندرسون ، الذى حارب فى كوريا وعاد الى واشنطون مثخنا بالجراح . فمم يخاف أمثال هذا الرجل ؟ هذا الرجل الجرىء المقدام الذى كان من بين سائر ضباط المخابرات المركزية ، الوحيد الذى يحتفظ بمراسلة زنجى معه ـ بارنى بارنز . انها لا تعرف شيئا عن حقيقة أمر هذا الرجل . سكيب الوديع المبتسم . وأجابت جين ، بعد ان تركتنى مع خيالاتى برهة :

ـ كلا . لست أعنى شيئا من هذا القبيل . ولست أعنى أنه يخاف أحدا . كلا . ولكننى رأيتـــه يتأملك وكأنه يريد أن يجنبك أمرا او ينتشلك من وهدة قبل أن تتردى فيها .

ـ هل تعنين أن لهذا علاقة بالضابط المرافق له ؟ بمعنى أنه ليست له اليد العليا فيما يقول ويفعل ٠

وانبرى دالبى قائلا ، دون أن يرفع عينيه عن قائمة الطعام :

ـ أعتقد أنه ليس عليك أن تتمادى في نظريتك هذه عن هندرسون٠ ان للرجل تاريخا حافلا ببعض الحماقات ٠ وهـذا هو مصدر القلق عليه٠ وفى رأيى أن هذا المرافق لسكيب هندرسون كان بناء على اقتراحه هو ٠ انهم لا يريدون أن تتسع الدائرة ويذاع الامر ، وأن يكون لصداقتكما تأثير في ذلك ٠

ـ كان من اليسير على سكيب أن يقفل باب المناقشة ، وأن يضـع حدا لأسئلتى باجابته نفيا على كل سؤال منى ٠

ـ هذا صحيح ٠ وما أظنه لو كان قد أوتى هذه المقدرة ، الا كان الآن فى رتبة الليفتنانت جنرال ٠

وحاولت أن أتبين من ملامح وجه دالبى ومن نظراته ما يعيننى على الاحاطة بكل ما يعنيه مما يقال ومما لا يقال ، ولكنه كان متشاغلا عنى بقائمة الطعام وبدعوة الساقى ، الذى أقبل ليتلقى منا ما نأمره باحضاره لنـا ٠

وكان النادى قد ازدحم بالمترددين عليه ، ودارت الموسيقى ، ونشط الراقصون ، وتصاعدت الضحكات ، ووجد الساقى صعوبة فى اختـراق هذه الصفوف ، ليصـــل الينا بكئوس المارتينى ســـالمة من كل سوء ٠ وكان دالبى قد استدار فى مقعده وراح يراقب القاعة بعين الباحث المدقق، حريصا على ألا يحس منه أحد هذا الاهتمام ٠

وجلست أحتسى كأسى فى هدوء ، متتبعا حركات الراقصين ٠ ووقع نظرى على بارنى بارنز بين الراقصين ٠ فعجبت من أن سكيب قد ألقى فى روعى أن بارنى قد تخلف فى الولايات المتحدة ولم يحضر معـــه ، مع أن هذه الجزيرة الصـــغيرة ليست بالمكان الذى لا يمكن أن يلتقى الناس فيه ، وعندئذ توقفت الموسيقى وانفض عقد الراقصين ، وعاد بارنى بارنز ورفيقته فى الرقص الى مائدتهما ٠

ـ ان هذا هو بارنى بارنز ، مرافق سكيب هندرسون ، انه من يجب ان اقابله .

ورفعت الى جين حاجبين مستفسرين . وسمعت دالبى يقول دون ان يلتفت الى ناحيته : أهو الضابط الجالس بجوار النافذة ؟

وأردفت جين قائلة :

ـ لم أكن أظن أنه زنجى . اهو هذا الجالس مع تلك الشقراء ؟

ـ أو تعرفينها ؟

ـ كانت ملحقة بسفارة طوكيو فى العام الماضى ، وكانت تؤم كل الحفلات . وسمعت أنها كانت على وشك الزواج من شخص ما .

ـ هل آتيك بقدح من اللبن ؟

ـ بل ان ما أقوله هو الحق ، وعليك أن تخبر بذلك صديقك بارنى بارنز اذا كان أمره يعنيك .

ـ جينى ، ان بارنى كان فى غنى عنى طوال حيـــاته ، فلنـدعه وشانه .

وأخيرا سمعنا صوت دالبى الذى أنسانا صمته وجوده معنا قائلا :

ـ لقد تاخر الساقى فى احضار الطعام .

ـ وأخيرا تسمعنا صوتك .

ـ انه يحضر العشاء للجميع ، ويتركنا مع هذا المارتينى اللعين .

وانبرت جين قائلة :

ـ وفيم العجلة ؟ انه لخير لنا أن نقضى أطول فترة ممكنة فى هـذا المكان ، فى انتظار العشاء وفى تناوله ، وحتى فى مراجعة الحساب مع الساقى .

وحاولت أن أنهض لأقضى بعض الوقت مع بارنى ريثما يعد عشاؤنا، ولكن دالبى رفض معلنا توقف الحياة حتى نتناول عشـــاءنا . وكانى به كان يريد منى ان اتوجه الى المطبخ واشرف على اعداد طعامنا واتعجـــل الساقى لاحضاره .

ولم ار بدا من أن أنهض على غرة منهما قائلا : سأعود بعد دقيقة ٠ واندفعت اشق طريقى بين الحاضرين ٠ ولم أحاول ان ألتفت الى الوراء، وكنت اتخيل جين وهى تحاول أن تهدىء من ثائرته ، بطريقة او باخرى ٠

ووقع نظر بارنى على وانا مقبل عليه ، فابتسم وراح يسر بشىء الى رفيقته الشقراء ٠ وقد تبادر الى ذهنى أنه يهمس فى اذنها قائلا : « اذا ما استدعى الامر فلتقولى انك مساعدتى واننا تأخرنا فى عملنا واننا نقوم بانجاز ما تبقى منه هنا » ٠

وكنت أحب بارنى وأنزله من قلبى مكانا عزيزا ٠ وكانت رفيقته قد مالت على المائدة تصلح من شأنها ٠ وحيانى بارنى بابتسامة عريضة عبرت عن سروره بلقائى ٠ ونهض عن مقعده ، ودار حول المائدة وهو يقول لى :

ــ لقد التقيت بصديق قديم من كندا ٠ واستعدنا كثيرا من ذكرياتنا بتورنتو ٠ وذكرنى بأغنيتك المفضلة فى كنج ستريت ٠

ــ لعله نات ؟

ــ هو بالذات ٠ نات جودريتش ٠٠ اننى أذكر شيئا عن هذه الاغنية ٠ انها تبدأ : « فلتكن أول من يرتقى الجبل ، وليكن تسلقك له بمفردك » أليس كذلك ؟ وهل تعمل بها ؟

ــ اجل ، أجل ، بكل تأكيد ٠

واستغرق بارنى فى الضحك قائلا : « ربما اعدنا ليلة من هذه الليالى ٠ لكم شربنا ولهونا ٠ ساحاول الاتصال بك فى مدى يوم او بعض اليوم ٠ اما الآن فأنا مضطر للانصراف ٠

وكانت رفيقته الشقراء واقفة تنتظر فى قلق وقد نفد صبرها ٠ ولم تكن هذه الذكريات صحيحة فى كثير او قليل ٠ ولم يسبق لى ان شربت حتى الثمالة ورفعت عقيرتى بالغناء ٠ ولم يسبق لى ان التقيت

ببارنى فى تورنتو • ولم يسبق لى أن عرفت رجلا باسم نات ، وماظن بارنى كان يعرف أحدا باسم جودريتش •

- ١٩ -

كنا نحس بحرارة الرمال الساخنة تخترق أحذيتنا من شدة ما تعرضت له من أشعة الشمس الحارقة • وكنا واقفين نتأمل تلك الاسلاك وهذه الانابيب المتشابكة المتعارضة كالافاعي الصينية ، أسفل قاعدة برج الانطلاق • ورحت أتنقل بعينى بين رجال الامن وكلاب الالزاس، غير متمالك نفسى من الاعجاب بكل هذه الاحتياطات والاجراءات الوقائية التى لم تغفل شيئا • كما شاهدت عن بعد حوالى النصف ميل رجال التصوير يثبتون آلاتهم الاوتوماتيكية ، لتصوير كل صغيرة وكبيرة تجرى من بداية العملية لآخرها • وهبط من أعلى البرج مصعد صغير لا يسع أكثر من ثلاثة رجال • وتركت حقيبتى مع دليلى صاعدا كالصاروخ الى أبعد من مائتى قدم • ولما توقف المصعد بى ، وقفت فى أعلى البرج أتطلع الى ماحولى جنوبا وشمالا وشرقا وغربا، لأرى الجزيرة بكل مافيها وبخلجانها وبرمالها ، تحيط بتلك الاجهزة والمعدات التى تشهد بجبروت العقل البشرى• وكنت من مكانى أشرف ، فى الوقت نفسه ، على ماينفق فى سبيل انقسام البشرية على نفسها ، وما يعد استجابة لهذه الروح العدائية التى تنذر بالانفجار ، ووقفت أسرح الطرف فى كل هذه الآلاف المؤلفة من ملايين الجنيهات ، تنفق فى سبيل ذلك ، وهناك من البشر فى جهات أخرى من العالم من يبحث عن حفنة من الارز •

وفى دورة على الشرفة العليا ، وجدت نفسى وجها لوجه أمام بارنى •• وكان يرتدى حلة عسكرية بيضاء عليها علامات التجربة العلمية ، وعلى ذراعه شارات الرقيب الاول (الباشجاويش) ، وفى يده مسدس

عيار ٣٢ر٠ ، وتصادف أننى رأيت فوهة المسدس موجهة الى ناحيتي ، فقلت له :

ـ هلا نحيت هذا عنى •

ـ من الافضل أن يلتزم المرء جانب الحذر •

ـ والآن هات ما عندك •

ـ فلتبدأ انت لأتبين حقيقة امرك • حقيقة اننا تعارفنا من قبل، ولكن الناس يتغيرون • هل تغيرت عن عهدى بك ؟

ـ ربما • ربما أكون قد تغيرت •

وران علينا صمت مطبق طال أمده • وفى الحق أننى لم استطع ان ادرك ما كان بارنى يرمى اليه من حديثه هذا • وحاولت أن اقلب الامر على كل وجه ، لعلنى أن أتبين شيئا من ثنايا سلوكه واقواله • ووجدتنى أكشف عما بجول بخاطرى قائلا :

ـ انك تستيقظ فى يوم من الايام لتجد أصدقاء العمر وقد تبدلت أحوالهم • وتصحو لتجدهم وقد صاروا الى هذا الطراز من البشر الذى كنت تحتقره وتنظر اليه شذرا • ثم تتحقق بعد ذلك من انك بدات تقلق من أجل نفسك اشفاقا عليها من هذا المصير •

ـ أجل • هو ذاك • وانهم لم بعد يعنيهم من أمر هذا التحول الذى هز كيانهم شىء •

ـ بل ان هذا ليعنينى فعلا •

ـ ذلك لأنك لا تعرف متى تتعرض لما تعرضوا له •

ـ قد بكون هذا صحيحا • ولكننى لا أغرر بالناس لأزج بهم فى احرج مأزق لأثبت ذلك •

ولكنه لم يبتسم • لقد قلت هذا على سبيل المزاح • أم لعل ذلك لم بكن مزاحا فى تقديره • وسمعته يقول لى :

ـ وهكذا تغيرت ، وهكذا فقدت صوابى • استمع الى أيها الرجل الابيض ، أو تعرف شيئا عن أغلى سلعة فى هذه الجزيرة ؟

ـ الست اقف على قمتها ؟

ـ كلا . اللهم الا اذا كنت واقفا عليها راسا على عقب . ان اغلى سلعة هى انت . اجل انت . ان الاضواء مسلطة عليك . يقـول « الاصدقاء » عنك انك ضللت الطريق او حدث عنه قليلا . هـل هذا صحيح ؟ صارحني بكل شيء .

ـ أصارحك بماذا ؟ اذن فهذا هو السبب فى ان الاصـدقاء قد دفعوا بى الى القيام برحلة حول العالم ليلقوا بى بين يديك اعلى قاعدة تفجير القنبلة الذرية . الا انه قبل ان يحدث شيء من هذا القبيل ، دعنى اصارحك بما سألتنى اياه . هل انت مجنون ؟

انا مجنون ؟ أم انت المجنون ؟ ان احدنا يجب ان يكون كـذلك ، وان كانت الفرصة سانحة لنثبت لهم أننا أكمل عقلا واطول باعا من اى منهم .

وكان وجهه قريبا من وجهى . وسكت عن الكلام ، ووقفت احدق فى وجهه ، وران علينا صمت مطبق ، خيل الى اثناءه ان الزمن قد توقف بضع دقائق عن الحركة . ثم سمعته يقول لى فى صوت متهدج :

ـ ان مصيرى الموت اذا ما رآنى احـد وانا اتحدث اليك . الم يتبادر الى ذهنك السبب فى مرافقة هذا الضابط لسكيب كظله ، وفى مرافقة هـذه الشقراء لى ؟ ان مجرد اقترابى منك يقتـرب بك من المشرحة .

ـ هكذا ؟! اذن فما عليك الا أن تعجـل بالاحتفـاظ بحقك فى الاشتراك بجنازتى .

ـ لست أدرى ماذا انا قائل لك . ان امرك لشد ما يقلقنى .

ـ شكرا .

ووقف كل منا يحملق فى وجه الآخر . واسرع بادرنى بعد برهة الى المصعد يعالجه حتى لا يمكن التحكم فيه من اسفل . وعاد يقول بكل هدوء : اننى الوحيد الذى امكنه ان يتصل بك . والوحيـد الذى

لم يصدق شيئا مما يقال .وبالذات اذا ما شعر بخيوط العمل تنجمع ضد رجل قد لا يعرف شيئا عما يدور خلف ظهره . ولقد رايت ان اعطيك فكرة عما يحاك ضدك قبل فوات الاوان ، وقبل ان يتبين المرجفون خطاهم فى وقت لا يمكن فيه اصلاح نتائج هذا الخطأ .

واسقط فى يدى ولم احر جوابا . ولم ادر هل اشكره ام هل اعتذر اليه . وقد اخرجنى من حيرتى وكأنه كان يقرأ افكارى قائلا :

ـ لا تحاول ان تشكرنى . ان سكيب لم يتح له الفرصة التى اتيحت لى . انه هو الذى يستحق أن تشكره .

واردف قوله بابتسامة ، وتحرك وكأنه فرغ مما كان يود الافضاء به الى . ولكننى استوقفته قائلا :

ـ مهلا . دعنى اضع النقط فوق الحروف .

ـ ليس هناك متسع من الوقت . وما عليك الا ان تنسى اننا التقينا ، على الا تنسى ما بصرتك به ، وما يجب ان تضعه نصب عينيك .. اننا لا يجب أن نرى معا .

ـ اعطنى مسدسك .

ـ وماذا أنت فاعل به . انك لن تستطيع ان تشق طريقك بواسطته . ما عليك الا أن تتلمس لك طريقا تنجو فيه بجلدك . هيا انطلق بطائرة تخرجك من هنا .

والقى الى بالمسدس وبشريط من المعدن اللصاق استعنت به على تثبيت المسدس بساقى اليمنى تحت السروال . واسرعت الى المصعد ، وسمعته يقول لى قبل أن يوصد بابه :

ـ وحذار ان تذهب باكيا الى رئيسك الجديد .

ـ وهل دالبى هو الآخر مقتنع بما يقال عنى ؟

واستعرضت كل ما كان يصدر عن دالبى من كلمات وتصرفات فى الايام القليلة الماضية ، وحاولت ان أربط بين كل ما كان وما سمعته الآن . ووجدتنى مشوش الفكر ، في دائرة خبيثة من الحيرة وشرود الذهن .

وأسرع المصعد بى هابطا . والفيت دليـــلى فى التظارى وسلمنى حقيبتى . فحملتها عنه وعدنا أدراجنا الى باب الخـــروج . ووجدت سيارة نقل تقف بها ، وسائقها يتركها ليخلى مقعده لشرطى يقودها الى البرج . وأطلع القائمون على حراسة الباب على بطاقتينا ، ولم يبد أن أحدا منهم كان يعرف أن أغلى سلعة بالجزيرة كانت تخرج من الباب المعهود اليهم بحراسته .

وفى طريقنا بالسيارة الى نادى الضباط ، رحت أستعرض كل ما كان من جين فى الليلة السابقة . اهتمامها ببارنى وتعليقاتها عـلى سكيب وموقفه منى . تصرفاتهـــا مع دالبى ومدى تفاهمهمـا على كل ما يتصل بشأنى .

وما أن احتوانى نادى الضباط ، ووصلت الى أنفى رائحة الدجاج المشوى ، واستقر بى المقام الى المائدة الموضوع عليها اناء الماء المثلج . حتى شعرت بالهدوء والراحة . فى هذا الجو المكيف .

- ٢٠ -

كان نادى الضباط مشيدا بالصـــورة التى تتفق وكل شىء فى جزيرة توكوى وكان مقاما من طابق واحد . وغادرت قاعة الطعـام الى غرفة الجلوس حيث رأيت جين جالسه بجوار النافذه بين جماعة من الطيارين ، تبينت من شاراتهم أنهم من كبار الضباط ممارسة ودربة بالرغم من صغر سنهم ، لأنهم كانوا يرقون الى رتب اعلى كلما قاموا بعمل مجد ، كاتقان اصابة الهـدف وقوة التحكم وحسن التركيز . ومثل هؤلاء الضبـــاط ، هم الذين كانوا يخترقون المجال الجوى السوفيتى فى كل مرة يتوقع المسئولون حدوث تفجير ذرى او يتوجسون خيفة من هجوم مفاجىء . وسيقوم هؤلاء الضباط بملاحظة آثار هذا

التفجير من الجو ليقارنوا بين الحالتين • وما أظن جين بقادرة على أن تنتزع من هؤلاء الضباط سرا ، وما أظن أن هناك أية فرصة أمامها لتنال ما تبغى • ومع ذلك ، فقــد رأيت أن أجلس بعيدا عنهـا ، وتشاغلت بمراجعة بعض الأوراق التى كانت أليس قد أودعتها حقيبة أوراقى • وكنت أختلس النظر من وقت لآخر ناحيــة جين ، فأراها مستمعة لما يدور بين الضباط من حديث ، لا تشترك معهم الا اليسير وبقدر ما تدعو اليه الحاجة الى توجيه الحديث •

وكان بوسعى أن أسمع مايدور بينهم من حديث . فانصــت لأسمع أحدهم قائلا :

ـ أجل يا سيدى • ان نيويورك هى المدينة بحق • اننى لا أعترف بغيرها مدينة .

فيعقب آخر :

ـ اننى أحب نيويورك ، ولكن ، نيو أورليانز هى المدينةبحق ! يالها من مدينة !

ويتدخل ثالث ورابع ويدور الحديث على الوجه التالى :

ـ لعلك لم تزر باريس ، فرنسا .

ـ لقد أقمت بها ستة أشهر . انها آخر بلد فى العالم مازالت تعترف المرأة فيه بسيادة الرجل •

والهند ، وأفغانستان التى يساوى الجمل أكثر مما تســاويه المرأة • لقد رأيت ذلك بعينى رأسى ، حين التقيت برجل يمتطى ظهر جمله وامرأته تتقدمه سيرا على قدميها • فلما سألته لماذا لا تشاركه زوجته فى الركوب . قال لى ان فى طريقهم حقول ألغام ، وأنها يجب أن تتقدمه ، لأن الجمل يساوى كثيرا ، وهو عنده أكثر نفعا من زوجته •

وعلى هذا النمط دار الحديث بينهم • فرندا يتحمس لتكســاس وذاك لألاسكا • وهــذا يفاضل بين ألمانيا وفتيــاتها وبين اسكندناوه وحاناتها • وأخيرا انفض مجلسهم ، وقام كل منهم الى وجهته ، حتى

خلت منهم غرفة الجلوس . وأقبلت جين تقف خلف مقعدى وتلمس رأسى بيدها . ثم دارت لتواجهنى وتتخذ لها مقعدا أمامى . وبعد أن تبادلنا ابتسامات اللقاء ، تساءلت فيما بينى وبين نفسى ، ما اذا كانت جين هذه بالنسبة لى كدولو بوفسكى بالنسبة لسكيب . وبيت نية على تقييم كل ما عساها ان تقوله لى ، لأننى لاحظت أنها متلهفة على أن تحكى لى عمن كانوا يجالسونها . وفعلا بدأت تسرد على مسامعى تفصيل عملهم ، بعد أن أشعلت سيجارة راحت تدخنها فى هدوء ، متأملة حلقات دخانها ، حتى لا تلتقى نظراتنا كثيرا .

وبعد أن انتهت من حديثها عن هؤلاء الضباط وبعض ما قاموا به ، سكتت عن الكلام متخذة وضع من تترقب اطراء هندامها وجمالها . وفى الحق أن شمس الجزيرة وحرارة طقسها قد اكسباها سمرة ضاعفت من جمالها . وبعد أن فرغت من تدخين سيجارتها ، راحت تتأمل أظافر يديها ، وقالت لى دون أن ترفع عينيها عنها ، « هل ذهبت الى جيلد فورد ؟ » .

فأومأت ايجابا . واستطردت قائلة :

ـ فى الاسبوع الاول ، عندما يكون التدريب كله عمليا وبدنيا ، وتجلس معظم وقتك فى انتظار برنامج الاسبوع الثانى ، يلقون عليك محاضرة فى بناء الخلايا وما الى ذلك .

وكنت أعرف أنها تعرف بدورها أنه لا يوجد مبرر لمثل هذا الحديث. ولم أحاول أن اقاطعها . وتركتها تواصل حديثها قائلة :

ـ « ان أليس هى حلقة الاتصال الرسمية بينى وبينك . وفيما يتعلق بى ... » ثم توقفت قليلا قبل أن تستأنف قولها : « ومنذ اتصالى بها لم ألجأ الى وسيلة اتصال اخرى » .

ولم أعقب بشىء . وظللت فى مقعدى ساكنا لا اتكلم . فقالت :

ـ ان عملى أصبح اكثر تعقيدا مما كان عليه فى ماكاو . واشمل اختصاصا مما كنت اتوقع . ولم اتصور اننى ساقوم بشىء من هـــذا

الفيل » • وأومأت برأسها ناحية المكان الذى كانت تجلس فيه مع الضباط بجوار النافذة • « ولكننى سأواصل القيام بما أكلف به عن طيب خاطر • غير انه يجب أن يكون لذلك حدود • اننى امرأة ، وطاقاتى محدودة »•

ـ «قد تكونين مخطئة فيما تظنين » • وفى الحق أننى قلت ذلك وانا لا أعنى به غير كسب الوقت أكثر من أى شىء آخر •

ـ لست من هذا الرأى ، وسأدلل لك على صدق زعمى ، اذا كان لديك متسع من الوقت • ساعة أو بعض الساعة •

وتبعتها الى الخارج ، ثم الى حيث تقف السيارات • واحتلت مقعد قيادة سيارة فورد • والى حاجب الشمس بجوار مقعد السائق ، كان مثبتا جهاز ارسال صغير فى حجم صندوق سجائر سعة عشرين سيجارة • ويمكن لهذا الجهاز أن ينقل الصوت الى مسافة ثلاثة أميال • وهو جهاز يفرض على كل سيارة فى جزيرة توكوى أن تزود به • ونزعت الجهاز من موضعه، ووضعته داخل صندوق من أوراق « الكلينيكس » فى المقعد الخلفى لسيارة شفروليه كانت بجوارنا • وصعدت الى جانب جين التى انطلقت بالسيارة الفورد •

وكانت جين متحكمة فى عجلة القيادة ، منطلقة بالسيارة فى اقصى سرعة ، واثقة من حسن تقديرها للمنحنيات عند الاقتضاء • وبعد مسيرة بضعة أميال ، وبدلا من أن تعرج بالسيارة الى اليسار ، فى الطريق الى داخل الجزيرة ، عرجت الى اليمين ، فى طريق وعر استغرقنا فى المرور به حوالى الساعة ، الى أن توقفت بنا جين حيث تريد ، فى جانب من الجزيرة كثير الصخور البركانية ، والنباتات النامية على منحدراتها ، بعيدا عن مركز الادارة ونادى الضباط •

وكانت الشمس تنحدر نحو المغيب ، لتصعد مشرقة فى جانب آخر من العالم • والتقطت جين شعلة كهربية من السيارة ، وواصلنا طريقنا سيرا على الأقدام •

ولأول مرة منذ انطلاقنا ومغـــادرتنا للنادى ، لم أتمالك نفسى من سؤالها قائلا :

ـ اليس من حقى الآن أن أعرف شيئا عما نحن مقبلون عليه ؟

ولم تسرع بالاجابة • وخيل الى أنها حائرة فيما يجب أن تصارحنى به شفاها ، وكان الأمر مستغلق الفهم عليها •

ـ لقد كنت هنا في الليلة الماضية مع دالبى • وقد اصطحبنى حتى نبدو فى جولة غرامية أو ما شابه ذلك ولا يكون موضع شك فى حالة ما اذا كان بمفرده • وقد تركنى فى السيارة • ولم أستكمل معه الجولة• وانى لأريد أن أرى الليلة ما لم أره بالأمس •

وعاونتها فى تخطى حاجز من الأسلاك الشائكة • وأوغلنا فى السير بعيدا عن الطريق ، حتى اختفت السيارة عن أعيننا • ووجدنا على الشاطىء كثيرا من مخلفات الحرب العالمية الثانية • وبدا لى من الحالة التى رأيت عليها الدبابات والمصفحات وغيرها ، أنه كان لطبيعة الارض الدفاعية اثر فيما لحق الغزاة من خسائر فادحة جسيمة • وكأنى باليابانيين قد فطنوا الى ذلك واستغلوه أيما استغلال • وتقدمتنى جين حيث لحقت بها واقفة بباب الحصن الصغير المقام من الحجارة والاخشاب والمدعم بكمرات من الحديد بارتفاع قدره ٢٥ قدما • وقد ظهرت على جدران الحصن آثار يد الطبيعة من حرارة ورياح ، ونمت به النباتات والأزهار البرية حيث كانت بمنجاة من عبث الانسان بها ، بعد أن ترك الحصن واستغنى عنه • وكان المدخل منخفض الارتفاع ، لا يمكن للداخل أن يتخطاه الا منحنيا • والى جانب آثار قدمى جين على الرمال ، وجدت آثارا أخرى عرفت أنها لدالبى، وكانت أكثر انطباعا مما يجب أن تكون • الامر الذى رجحت معه أن دالبى كان يحمل شيئا •

ـ هل كان حمله ثقيلا ؟

ـ الصندوق الذى كان يحمله ! أجل ، كان يبدو كذلك • ولكن ، كيف عرفت هذا ؟

ـ لقد استنتجت ذلك • ويلوح لي انه كان منهمكا حتى انه لم يشعر بتعقبك له •

وتنحت جانبا لتفسح لي طريق المدخل قائلة :

ـ لقد كلفني بالتخلف في السيارة ، ولكن فضولي تغلب على فاقتفيت اثره •

ودخلنا الى الحصن • وتحققنا من أن هذه الجزيرة كان لها شأنها الحربي في الصراع الماضي • ومن المدخل اجتزنا ممرا ضيقا الى حجـرة صغيرة مظلمة تبلغ مساحتها حوالي ١٢ قدما مربعا • ووقفنا وقد خيم على الحجرة السكون •

ولـما اعتادت عيناى الظلام ، رأيت بالحجرة صناديق معدنية عليهـا أرقام وبعض كلمات « المصنع » • كما شاهدت في ركن آخر منها صناديق خشبية محطمة وبعد صناديق للذخيرة • كما شاهدت أيضا فتحات بعرض الحصن للمدافع وغيرها من وسائل القتـــال • وكانت جين منصرفة الى تسليط ضوء شعلتها على الجدران ، وبالذات القريب من باب الدخول ، حيث رأت شعلة دالبي بالأمس تتحرك في هذا المكان • وبدأت أنقل بعض الصناديق لأجعل منها مرتفعا يمكنني أن اصعد عليه لأدقق النظـــر فيما نبحث عنه •

وعلى ضوء الشـــعلة التي ناولتني اياها جين ، بدات أبحث بين المخلفات الموضـــوعة على الرف الحجرى الذى كان معدا للجنود للتحكم منه في الفتحات المثبتة أمامها المدافع والبنادق بعيدة المدى. وعثرت في الناحية اليسرى من هذا الرف على صندوق خشبي لم أجد بداخله شيئا ، كان موضـوعا فوق صـــندوق آخر من الكرتون عليه هذه الكلمات ، « أطعمة • كرانبرى مجمـد » • وتحت هـــذه الكلمات كان مطبوعا بعض الارقام المسلسلة ، وشهادات بنقاء المحتويات ونظافتها . ووجدت بداخل الصندوق أنبوبة للأشعة السالبة طولها حوالي سبع بوصات ، وما يقرب من الاثنى عشر ترانزستور ، ومظروف أبيض ، ومسدس سريع الطلقات . ولم يوجد بالصندوق ما كتب

عليه من الخارج ـ أطعمة وكرانبرى مجمد . وقمت بفض الظروف لأجد به قصاصة من الورق فى حوالى الست بوصات طولا واثنين عرضا ، مسطرا عليها حوالى الخمسين كلمة لم أفهم شيئا من مصطلحاتها . وناولتها لجين لتقرا ما بها ، فرفعت عينيها الى متسائلة « هل تعرف الروسية ؟ » فأجبتها بالنفى . ثم سمعتها تعقب قائلة :

ـ ان هذه الكتابة هى عن ..

فقاطعتها قائلا :

ـ فليكن . فليكن . قد تكون ، فيما يبدو ، مصطلحات عن قنبلة النيوترون .

ـ وماذا انت فاعل بهذه الورقة ؟

فأخذت المحرر منها وأعدته الى صندوق الأطعمة المزعوم . أما الظروف ، فأحرقته حتى صار رمادا . ثم قلت لها ، «هيا بنا ».

ومشينا على حذر على المنحدر المتجه الى الشاطىء . وكان قرص الشمس فى طريقه الى الاختفاء عند ملتقى السماء بالماء . وكنت أستحث الخطى وكأننى أريد بذلك أن أبتعد عن شيء ما . وسمعت جين تقول لى لما وصلنا من سيرنا الى محاذاة الشاطىء :

ـ لماذا يحمل بعضهم هذه الأنبوبة من الاشعة السالبة الى هذا المكان ؟

وكانى بها لم ترغب فى أن تقول دالبى بدلا من « بعضهم » .

ـ قد يكون من الأفضل أن تصاريحينى بما قاله لك عنى . فانك ان فعلت هذا ، يسرت لى ولك اماطة اللثام عن الكثير مما تتساءلين عنه ، وجلوت الك بعض ما يكتنفنا من غموض .

ـ ان الأمر هين يسير ـ لقد قال لى أن بعضهم أو بمعنى أصح بعض رجال المخابرات ، واثق من أنك تعمل لحساب جهاز الجاسوسية السوفيتى (لجنة أمن الدولة) . وقد نقلوا ذلك ،

لأنهم كانوا مهيأين لتصديق هذا عنك ، بعد قتلك لرجلين من رجال بحريتهم منذ حين .

ـ وما هو موقف دالبى من كل ذلك .

ـ انه جد مبتئس . وقد كان لتغيبه أثر كبير فى استفحال أمر هذه الاشاعة . هل قتلت الرجلين فعلا ؟

ـ أجل . لقد قتلتهما ، وأصبح العدد بذلك ثلاثة . وهذا بخلاف ضحاياى في الحرب ...

ـ لا تسترسل . ليس بك حاجة لأن تخبرنى بهذا .

ـ لم يكن ذلك عن عمد منى . تلك هى الحقيقة . ولم يكن بوسع أحد أن يفعل غير ذلك . انه خطأ غير مقصود . ماذا كانوا يريدون منى أن أفعل .. أن أكتب لجاكى كنيدى أعتذر اليه ؟

ـ يبدو أنه كان من رأيه التريث حتى يتبينوا ما اذا كنت اتصلت بأحد قبل أن تفعل شيئا من هذا الذى ينسب اليك . وكان يتساءل عما اذا كان كارسويل كان يعمل معك عندئذ . لقد بعث برسالة بالشفرة عن طريق الراديو لتنحية كارسويل وموراى عن عملهما بالادارة .

ـ انه أمر متأخر . لقد ألحا على فى الاذن لهما بالتغيب قبل سفرنا .

ـ لعل فى هذا ما يقنع دالبى .

ـ بأن كارسويل هو حلقة الاتصال ، ربما .. ولماذا لا يشك فى أن تكونى أنت وسيلة الاتصال ؟

ـ لأننى لست كذلك .

ـ لو كان ما يقال عنى صحيحا ، وأننى أعمل لحساب جهاز الجاسوسية السوفيتى ، لما هيأت الفرصة لأحد بأن يشك فى تصرفاتى ، ولالتزمت جانب الحذر والحيطة تجنبا لكل شك . لست

أنت ولا غيرك حلقة اتصال بيني وبين لجنة الأمن الروســية ، لأنني لا أعمل لحسابهم فعلا .

وابتسمت جين ابتسامة الرضا والارتياح ، قائلة :

ـ يلوح لى أننى لم أحسن الاستماع جيدا كما فعلت أنت فى جيلد فورد .

وبدأ نسيم المساء المنعش يهب علينا من البحــر ، فيــداعب خصلات شعرها وأهداب ثوبها ، وتأملت هذا الجمال الذى يخطو الى جانبى على حافة مياه المحيط التى احتضنت قرص الشمس الغاربة فلعنت هذه الظروف التي ألهتنى عن التمتع بكل هذا الجمال . جمال الطبيعة وجمال البشر . وبينما كنت محلقا في سماء خيالى ، وقد كدت أن أنسى ما أنا فيه من متاعب الحيـاة . صحوت لأجدها وقـد اعترضت طريقى لتهبط بى من تأملاتى قائلة :

ـ فلنسلم بأنك لا تعمل لحساب الجاسوسية الروسية ، ولكن من يشك فى أنك هذا الرجل ، يريد أن يقوم بشيء ليوقفك عند حدك . ترى ماذا هم فاعلون ؟

ـ ان أيامن كان لا يمكن أن يجرأ على مجرد التفكير في مثل هذا .

ـ انه مجرد افتراض . فماذا تكون العواقب ؟

ـ لست أدرى . ان هذا لم يطرأ على بالى من قبل ، ولم يسبق أن تعرضت له .

ـ ان الطقس يميل للبرودة . فلنعد الى السيارة .

- ٢١ -

وكانت الأيام التالية ، أياما مليئة بالحركة مشــحونة بالتوتر ، لأنها كانت تقترب بنا من اليوم المحدد للتفجير . ولم يتغير الوضع بالنسبة لى ، ولم أنقطع عن حضور المؤتمرات والاجتماعات التى كان

يشترك فيها غيرى من المراقبين . ولم تتح الفرصة لجين ولى لنتبادل أكثر من كلمة أو كلمتين دون أن نقرض لأن يسمعنا احد أو يسجل لنا حديث • وكنا قد اتفقنا على هذا التباعد تجنبا لاثارة أى شك بالنسبة لتفاهمنا عما يدور بشأنى • وكنت أراها واقفة بالدهليز ، في انتظار التوقيع على بعض مالديها من أوراق ومستندات . وكنت أنتحل الأعذار لأمر بجوارها فى الدهليز ومداخل الأبواب لألتقط كلمة أو كلمتين .

وقضيت يومين فى عمـــل متصل مع دالبى ، لا أكاد افارقه او يفارقنى • وكنت مسرورا بذلك • وكان هناك فارق كبير بين دالبى وبين غـــيره من رجال المخابرات ، لأنه كان لا يعمـــل الا بنـاء على وحى من ضميره ومن اقتناعه الذاتى ، ولأنه كان يترك افيره من مرؤوسـيه الفنيين حرية العمل فى حـدود اختصاصهم ، دون أن يحـــاول نسـبة الفضل اليه فيما ينتجون .

وكنا قد اكتشـــفنا ، أنا وجين ، الصـــندوق السرى فى الحصن فى يوم ثلاثاء • وفى يوم الخميس ، دعانا القائد العام ـ الجنرال جيربت ـ مع غيرنا من المبعوثين ، لحفل في منزله .

وكان منزل القائد مشـــيدا فى الجانب الصخرى من الجـــزيرة • ومرة أخرى قدر لنا أن نشاهد الشمس فى مغيبها . وننعم بهذا المنظر الأخاذ المتعدد الالوان في هذه الساعة الاخيرة من ساعات النهار . ودار السقاة بكئوس المارتينى المثلجة ، على الجمـــع المتباين الاجناس والسمات والاذواق • وجلس ثلاثة من موسيقى الجيش يعزفون مختلف الألحان .

وبعيدا عن الأضـــواء ، فى طرف حـــديقة منزل الجنرال ، رأيت دالبى جالسا على احدى الصخور ، يتطلع الى المياه التى كانت تبعد عنه بحوالى ثلاثة أقدام • وشاهدت عن بعـد احـــدى المدمرات وقد القت مراسيها . وتبينت من الدخان المتصاعد أنها على أهبة الاستعداد للابحار . وتمكنت من قراءة حرف ((ر)) المنقوش على جانبيها ،

والذى يستدل منه على انها احدى سفن قياس الأعماق وموجات الذبذبة تحت سطح الماء . وعلى ((اللنش)) الواقف الى جانبها ، كنت أرى رجالا من فرقة الضفادع البشرية ، يصعدون ويهبطون لاحكام وضع شبكة أجهزة القياس .

ولاحظت ان دالبى كان يحرك كاس المارتينى فى يده بدورة عصبية ، ثم سمعته يقول :

ــ ليس هناك من سبيل للاتفاق معهم .

ولم يكن بوسعى الا ان اقرن هذه الملاحظة بشخصى . ولكنه استطرد قائلا ، ((ان محاولة أية مساومة معهم ، يجب أن تستبعد من كل اعتبار ، وذلك لأنه لا يوجد أى ضمان لمحافظتهم على كلمتهم . ان الحرب ستكون فرصة لهم . فرصة لنشر مبادئهم . ولا تنسى أنهم سيدخلونها بأسلحة أقوى وأشد من هذه القنبلة التى نقيم الدنيا ونقعدها من أجلها . انها ستكون بمثابة لعبة أطفال بالنسبة لقنابلهم .

ثم تطلع ناحية المنزل عبر الحديقة التى غصت بالمدعوين من الرجال والنساء ، وراح يتأمل الراقصين والراقصات على أنغام التشاتشاتشا . وانبرى من بين الحشد بريجادير ، سمعت دالبى يقول له : « لقد انقلبت الجزيرة عيدا يا جيمى . وانكم ستظلون كذلك ، تواصلون تقدمكم العسكرى ، مادام نظامكم يجد من التجارة والصناعة عونا له .))

ووقفت انصت لحديثهما الذى كان مزيجا من السياسة والصناعة والتجارة ، فى تتبع واعجاب ، لأنه كان شيقا مسليا طريفا ولم ينقطع سيل هذا الحديث الا بقدوم فتاة طويلة القامة ، ليست على قدر كبير من الجمال ، لتدعو البريجادير لاصطحابها الى حلقة الرقص بداخل المنزل .

وتامله دالبى قائلا : « يا لهؤلاء الامريكيين . ان دماءهم تجرى فى عروقهم بكرات حب المال والافتنان فى كسبه . انهم لا يالون فى

سبيل هذا جهدا . حتى المشاعر الانسانية ، تجدهم أبعد ما يكونون عنها . »

ـ وهل صديقك البريجادير من هذا الطراز ؟

ـ انه طراز فريد في بابه . انني لم أصادف في حياتي كثيرا من أمثاله ، ممن لهم ذهنه المتوقد وفكره الصائب . لقد كان من أصحاب الملايين ثلاث مرات ، وكان من المفلسين مرتين . لقد كان معدما الى شهرين من قبل ، ثم دعاه الجيش للاشتراك في اقامة هذا المشروع ! فعاد بذلك ليصبح مليونيرا لثالث مرة ! انه شخصية ممتازة غير عادية .. أليس كذلك ؟

ورحت أتأمل البريجادير عن بعد ، عبر الشرفة ، وهو يراقص فتاته . وبينما كنت مستغرقا في ذلك ، سمعت دالبي يقول لي :

ـ لقد أراد أن يستعيرك للعمل معه عاما .

وظل كل منا لا يتحول بعينيه عن حلقة الرقص . وأجبته قائلا :

ـ وهل تم له ذلك ؟

ـ كلا . ما لم تكن تريد غير ذلك . لقد قلت عنك أنك تفضل العمل في شارع شارلوت .

ـ اذن ، فلتدعني أعرف عندما تجدني قد غيرت رأيي .

وفهم دالبي ما أعنيه . ورمقني بنظرة كادت تنفذ الى أعماقي . ثم سمعته يقول لي في صراحة وعدم التواء :

ـ لا تدع لما كان في هذه الأيام الأخيرة أن يترك أثره في نفسك . ما كان لي أن أحدثك بذلك . غير أن الملابسات اقتضت أن توضع موضع التجربة لفترة ما . ولقد كانوا يتوقون الى الصاق التهمة بأحد كبار الضباط من المشكوك فيهم ، أو قل التأكد من شكوكهم عندما ينبري لمساعدتك ضد حملتهم عليك . هل تفهمني . انهم يسلطون الأضواء عليك ، وليس عليه ، ليكشفوا عن حقيقة أمره ، لا أمرك . ومن هنا ، يتعين عليك أن تواصل القيام بدور المضطهد الذي رسم

لك . ضع ماقلته لك نصب عينيك ولا تستفسر مني عن شيء الآن .

وما أن وافت الساعة الثانية عشرة والنصف ، حتى تسللت من البــاب الجانبى للحديقة عبر طريق الخدمات المتــد بجوار مكتب البريد . وكانت الفرقة الموسيقية المختلطة بضــحكات المدعوين بمنزل الجنرال ، تصــل الى سمعى سارية مع الليــل الساكن فى هذه الجزيرة التى ملئت حياة . وعلى مســافة قريبة من مكتب البريد ، دخلت الكوخ المنعزل ، الذى وجدت به جنديا شابا سلمنى برقيتين ، علمت منه أنه تلقاهما بعد الساعة السادسة والنصف ، حين مرت به لآخر مرة .

« ليس للجاسوس أصدقاء » ، هذا ما يقوله الناس . ولكن الأمر غير ذلك . فالجاسوس يجب أن يكون له أكثر من صديق . أصدقاء يكتسب صداقتهم بما يقوم به لاجلهم ، وأصدقاء يكتسب صداقتهم بامتناعه عن القيام بأشياء أخرى . ولكل عميل «شبكته» التى تمتد عبر الحدود وتتخطى كل ولاء . تلك هى ضمانات الجاسوسية ودعاماتها .

وفضضت البرقية الاولى . وكانت من رجل يدعى جريناد ، أصبح من رجال السياسة ومن أصحاب الرتب الكبيرة ، وان كانت لا تقرن باسمه . وهى مرسلة من مكتب بريد ليون . وقد تأكدت من أنها مرسلة منه لأن اسم برت الذى ورد بها كان اسمه الحركى عندما كان يعمل لحساب المخابرات الفرنسية وكنت على اتصال به حينئذ . وكان نص البرقية كالآتى : « ان مرشحكم السامى ١٨١٨ ب . ت ١٣٠ سيدفع لبرت » .

ثم اطلعت على البرقية الثانية ، التى كانت من البرقيــات العادية الصادرة من مكتب بريد ش . ع جيرارد بلندن ، ونصها كمــا يلى : « قرأت صحيفة فى ج . ك . عن ٣ من ثانية . » وكان التوقيع : أرتيميدوروس .

وتأملت البرقيتين . فكل من المرســلين قد ضمن رســالته ما

يختلف عن الآخر . وكان واضحا أن جريناد يحاول أن ينبئني بأنني استطيع أن أستغل الاموال المودعة بالرقم الموضح بحساب أحد بنوك سويسرا • وكان من اليسير أن أهتدى لاسم هذا البنك ، لأن لكل بنك شفرة تختلف عن الآخر ، ومجرد ذكر الرقم يكفي ليتبين البنك ما اذا كان الحساب مودعا به من عدمه • وابتسمت وأنا أتساءل عما اذا كان هذا المبلغ نتيجة لعملية التزييف الامريكية التى سبق له الاشتراك فيها . أما البرقية الثانية فكانت من تشارلى كافنديش ، العميل السرى لخدمات الاستعلامات المشتركة • وكان يميل الى لسابقة خدمة ولده معى بالجيش ، ولما قتل ابنه في الحرب ، واتصلت به بعد ذلك ، استمرت علاقتى به وكنا من حين لآخر • وكان مرحا ميالا للدعاية ، مما كان حائلا بينه وبين تولى رفيع المناصب • وكان يقيم بشقة بالقرب من المتحف البريطانى .

وعدت أدراجي للحفل ، حيث وجدت الراقصين قد تضاعفوا عددا ، وتمايلوا نشوة . واتجهت الى الغرفة التى أعدها الجنرال لتكون مكتبا ثانيا له . وقلت للمراسلة الشاب الجالس خارج الغرفة مبتسما :

– أظن أن الجنرال لا يريد أن يزعجه أحد ؟

فابتسم الجندى وقد بدا عليه الارتباك ولكنه لم يحاول أن يوقفنى، وأسرعت بدخول غرفة المكتب ، حيث أشعلت سيجارة لأنعم بتدخينها فى هدوء •

وكانت مجموعة كتب شكسبير ، فاخرة التجليد ، تسر الناظرين وكنت أعرف ما أشار اليه صديقى الذى وقع برقيته باسم أرتيمدوروس • انه المشهد الثالث من الفصل الثانى من يوليوس قيصر ، فقمت باخراج المسرحية من المجموعة وجلست أقرأ ماورد بهذا المشهد .

وعلى الضوء الخافت المنبعث من مصباح المكتب ، تبينت شخصا يقف بالباب ، وسمعت في الوقت نفسه صوت انطلاق أحد

الصواريخ المدوى . وتأملت الواقف بالباب ، فوجدت انه جندى طويل القامة • وبعد أن تقدم نحوى وتأكد من شخصيتى ، حيـــانى قائلا :

ـ تحيات البريجادير دالبى ، ياسيدى •

ـ نعم . ماذا هنالك ؟

ونهضت لأعيد مسرحية شكسبير الى مكانها •

ـ لقـــد وقع حادث يا ســـيدى • فقد انحرفت ناقلة احـــدى المولدات الكهربائية عن الطـــريق انحرافا خطيرا . وكان الليفتنانت مونتجومرى مستقلا هذه السيارة • انى لجد آسف يا سيدى لازعاجك • لقد سألنى البريجادير وهو يستقل سيارته أن اخطــرك بالحادث و • • • •

ـ لا عليك من الاعتذار • وشكرا •

ان هـــذا الضـــابط هو بارنى • وانصرفت من فورى • وكانت السحب قد حجبت عن الارض ضوء القمر ، فبدا الليل مظلما عابسا وكأن الجزيرة اتشحت بالسواد • وكنت أكذب نفسى عما سمعته عن وفاة بارنى بارنز ، وأمنيها بأن فى الأمر خطأ ما • انه العقل البشرى، عندما لا يريد أن يصدق شيئا مما يقال ، يجنح دائما ليردد ما لم يسمع ويرى •

وانطلقت بالسيارة اللينكولن كونتننتال فى الطريق العام ، حيث لحقت بسيارة دالبى التى كنت أرى أنوارها الخلفية أمامى • ثم رأيته ينحرف يسارا بسيارته الى طريق الشاطىء ، الذى لم يعتن بتعبيــده لقلة المرور به • ورأيت دالبى ينطلق بسيارته بسرعة ٦٠ ميلا فى الســاعة بالرغم من وعورة الطـــريق • ولم اســتطع أن أتتبع مصابيح دالبى الخلفية ، لأنها كانت تختفى عن عينى من آن لآخر بحكم منحنيات الطريق • وفجأة ابصرت لافتة حمراء كتب عليها : تحذير • توقف على مسافة ٢٥ ياردة من هذه اللافتة • فتوقفت حيث كانت الساعة

٢ و١٢ دقيقة صباحا • ولكننى لم اتبين أثرا لدالبى • لقد مرق من اللافتة الحمراء •

وبحثت عن سجائرى • وقمت باشعال احداها ، بينما انقلب الليل نهارا ، نتيجة للانفجار المدوى الذى تردد صداه فى الجزيرة بأسرها •

- ٢٢ -

وفتحت باب السيارة ، لأخطو الى خارجها فى ضوء هذا الانفجار الذى أحال الليل نهارا • ثم خيم السكون على الجزيرة ، ولم يقطع حبله الا صوت « صفارة » الانذار تدوى فى عويل غير منقطع •

وحلقت طائرتان هيليكوبتر فى الجو فى اتجاه جزيرة شوت والقيتا بقذائف يدوية فى البحر • وكانت كل من الطائرتين ترسل بأنوارها الكشافة التى تخطف الأبصار • واستطاع البوليس الجوى أن يحدد مكان هدفه الذى يحاول أن يكشف عنه • ودارت احدى الطائرتين دورة كاملة واتجهت الى ناحيتى • وجلست حيث أنا لا أبدى حراكا • وكانت الساعة ٢ و١٧ دقيقة ، عندما سمعت صوتا فى المذياع يدوى مخترقا طبقات الهواء ، لم أتبين لأول وهلة ماذا يقول ، بالرغم من محاولتى هذا جاهدا • وكانت لهجة الصوت قوية آمرة عنيفة •

ـ لا تحاول أن تتحرك من مكانك •

واقتربت الطائرتان من سيارتى • ثم ابتعدت احداهما قليلا لتسلط أضواءها على ما حولى • ورايت سلما يتدلى من برج مراقبة الطائرة الأقرب • كما استطعت أن اتبين على ضوئها الكاشف السيارة المحطمة وجثة الجندى المتوفى مدلاة الى النصف من زجاجها الأمامى• ولم يدهشنى انه قضى نحبه بهذه الصورة • اذ لا يمكن لرجل أن يقاوم

الموت فى « كابينة » معدنية تتصل بتيار مرتفع القوة لمولد كهـــربائى كبير ٠

وكانت الســـاعة ٢ و٣٦ دقيقة صـــباحا عنـدما أقبل الكولونيل المتحمس ليلقى القبض على ٠ وفى الساعة ٢ و ٣٦½ دقيقـــة تذكرت القفازين العازلين الموجودين « بتابلوه » السيارة واللذين عثرت عليهما عندما كنت أبحث عن سجائرى وتساءلت عما اذا كانا لبارنى بارنز ٠

- ٢٣ -

فتحت عينى على ضوء منبعث من مصباح قوة ٢٠٠ ـ وات ، يتدلى من السقف ٠ فأغمضتهما لأريحهما من عناء الانبهار ٠ ثم أعدت فتحهما رويدا رويدا ، دون أن أحاول النهوض على قدمى ، مؤثرا أن أظل فى وضعى الذى يتفق مع ما أشعر به من اجهاد وارهاق ٠ ورأيت الجندى الذى كان يجلس خارج غرفة مكتب الجنرال ، جالسا أمامى عبر الغرفة، مستغرقا فى قراءة مجلته التى كانت بيده من قبل ٠

وكنت أمنى النفس بسرعة قيامهم باستجوابى ، حتى تنجلى الأمور لى ولهم ٠ وكنت مستلقيا على احدى محفات جيش الولايات المتحدة ٠ وتأملت النافذة الموجودة بالغرفة ، فوجدت أنها قد أحكم اغلاقها ٠ ودرت بعينى فى الغرفة لأتبين أين ألقوا بى ٠ وخيل الى أننى فى غرفة من غرف المبانى الحكومية المقامة فى الطرف الشمالى للجزيرة ٠ ولم يكن بالغرفة غير تليفون موضوع أسفل المقعد الذى يجلس عليه حارسى٠ ولم يكن الحارس مسلحا ٠

وبعد طول انتظار ، قدموا لاخراجى من الغرفة التى احتجزونى بها ٠ وقرأت مكتوبا على بابها عند خروجى « غرفة انتظار رقم ٣ » ٠ وساروا بى بضعة أمتار فى الردهة ٠

وخلف باب كتب عليه « قسم الامن الطبى للضباط » ، دخلت الى غرفة مظلمة دافئة مزودة بخير أثاث ، قد انعكس ضوء مصباحها رأسا على المكتب الفاخر الذى وقع نظرى عليه عند دخولى الغرفة .

والى هذا المكتب كان يجلس ضابط كبير برتبة البريجادير انه البريجادير الذى كنا قد التقينا به فى الحفل وتبادل حديثا طويلا مع دالبى . وكان مشغولا بتناول ما أمامه من طعام ، حتى أنه لم يرفع عينيه الى ، وهو يشير بيده الى المقعد الجلدى أمامه ليأذن لى بالجلوس.

ـ هل لك فى قدح من القهوة يا ولدى ؟

ـ كلا ، شكرا .

وكان صوتى بادى الغرابة حتى رفع الرجل عينيه لأول مرة وتأمل وجهى وما عليه من كدمات نتيجة لما وقع على من اعتداء اثر اعتقالى . وكانت شفتاى متورمتين ، وهـذا ما جعل صوتى يبدو غير طبيعى . واستطردت قائلا :

ـ لقد «أكلت» مافيه الكفاية .

ـ انك فتى شديد المراس . اليك هذا .

وصب لى قدحا من القهوة أكثر فيه من قطع السكر . ثم رفع سماعة التليفون ليأمر لى ببعض الطعام .

وبعد أن فرغت من تناول طعامى ، قدم لى سيجارا . فلما اعتذرت عن قبوله ، قدم لى سيجارة من سجائر الجولواز المفضلة ، وألح فى أن أحتفظ بالباقى . وكان الهدوء فى الغرفة شاملا ، الا من دقات الساعة الكبيرة خلف مقعده . وكانت الساعة قد بلغت العاشرة والنصف . وكنت أتنقل بعينى فى الغرفة الفاخرة الاثاث ، التى ان دلت على شىء ، فانما تدل على ما لشاغلها من مركز مرموق أفسح مكانا لما أراد أن يأتى به من متاع عبر البحار الى جزيرة توكوى . وعكف البريجادير على ما أمامه من أوراق يدرسها ، وقال لى دون أن يرفع عينيه : « اننى مضطر أن أراجع كل ما يعرض على من تفاصيل » . وخيل الى لأول وهلة أنه يعنينى بكلامه هذا ، ولكنه مد يده الى ببعض

الصور الفوتوغرافية • وكان من بينها صورتان من صور تحقيق الشخصية لكوربورال في حوالى الثانية والعشرين من عمره • وبعد ان أعدت الصور اليه قلت :

ـ اذن فهو جندى ؟

ـ ومن خيرة جنودنا • لم يمض عليه بالجيش أكثر من ستة أشهر • هل تعرف شيئا ؟ ان أول مرة قدر له فيها أن يرى المحيط كانت فى الشهر الماضى عند مروره بفريسكو • عندما تنتهى من تناول قهوتك ، سأريك شيئا هاما •

ونهض عن مقعده ووقف ينتظر حتى أفرغ من تناول قهوتى • وقلت له بعد أن افرغت قدحى :

ـ قد يطول بى الأمد حتى يتاح لى تناول القدح التالى •

فابتسم قائلا : « قد يحدث هذا • سنعود الى غرفتك » • وكان الدهليز مضاء بمصباح أزرق اللون • ووجدت غرفة الانتظار رقم ٣ غير مغلقة • وفتحت بابها لأجد نفسي فى وضح النهار ، مع أن الساعة كانت العاشرة والدقيقة الاربعين مساء •

وكان الضوء قويا يخطف الأنظار ، وقد فتحت النافذة على مصراعيها ، لينفذ منها ضوء شمس منتصف النهار الاستوائية • ووجدت المحفة التى كنت أستلقى عليها فى مكانها بجوار الحائط أسفل النافذة، وعليها نفس الغطاء المتناثرة عليه بقع دمائى ، اثر ما نالنى من اذى ووقع على من اعتداء • وعلى هذه المحفة وجدت جثة عارية مثخنة بالجراح •

ومشى البريجادير الى حيث توجد الجثة بخطوات متمهلة وهو يقول مشيرا اليها : « انه الكوربورال ستيف هارمون • وقد كتبت بما حدث له لقومه • انه الشاب الذى قتلته فى الليلة السابقة » •

قضيت من الاربعة والعشرين ساعة التالية حوالى الاربع عشرة ساعة مع البريجادير ، مع أن الاطباء كانوا قد نصحوا بعدم ارهاقى • وعدنا فى المساء الى غرفة مكتبه • وكان هناك المزيد من القهوة والمزيد من الشطائر • وبعد أن صب البريجادير لنفسه القدح السادس من القهوة فى مدى نصف ساعة ، بدأ حديثه قائلا :

ـ ان ملفك الذى تحت يدى يا كولونيل به ثلاثة نجوم • ولهذه النجوم الثلاثة دلالتها • وهى لا تعنى حتما أنك ممتاز فى عملك • انها تعنى أنك تشكل خطرا شديدا علينا • كما أنها تعنى أيضا ، بالنسبة لى ، أنك بارع فى بحثك واستقصائك • وأنا لا أزعم لنفسى هذه الكفاءة ، فما أنا الا شخص يكلف بالكشف عن ثغرات الأسلاك الشائكة• لقد أخبرتنى بانك لم تزود تلك الغواصة الروسية بالاشارات اللازمة فى ليلة الخميس الماضية • وبودى لو أصدقك • وما عليك الا أن تفند ما أدليت به اليك من معلومات ، وتدحض كل حجة فيها ضدك . حتى تنهار وتتبدد خيوطها •

ـ ولماذا لا تكون الغواصة هى التى اطلقت أنوارها الكاشفة ؟

ـ وهل فى هذا شك ؟ يقينا أنها قامت بذلك فعلا • لاتحاول ان تمارى •

ـ فما دام الأمر كذلك ، فما هى حاجتها الى عميل تستعين به على ذلك ؟

ـ اصغ الى جيدا • لقد تتبعنا الاشارة ، لأننا •••

ـ آية اشارة ؟ لقد استفسرت منك عنها أكثر من مرة ، ولكنك لا تريد أن تخبرنى بشىء عنها •

ـ الاشارة التى قمت بارسالها • الاشارة المتفق عليها •••

لأنك ... لأنك .. قذر .. لأنك قــذر . اننى أكبر ســنا من أن تعبث بى ...

ـ أظن أنه من حقى أن أتلقى الاجابة على ســؤالى . ان هــذا الاستجواب يمس حياتى كلها .

ـ كانت الاشارة ذبذبات كهربائية مرتفعة السرعة ، يمكن أن يعاد تفسيرها بعرضها البطىء . لقد حدث هذا فى الليلة الماضية ، ونقلت صور بالطريق الالكترونى لبرج القاعدة .

ـ ولكن الظلام كان دامسا فى الليلة الماضية ، فهل كان من الممكن التصوير فى مثل هذا الظلام الدامس ؟

ـ ما كان يجدر بى أن أخبرك بشىء ، ولكننا ما دمنا قد بدأنا هذه الكوميديا .. ان رجالنا غير واثقين فى الواقع : ربما كان للذبذبات الكهربائية العالية القدرة على التصوير فى الظلام . وربما تكون الغواصة قد سلطت أضــواء على السحب لتعكسها بالتــالى فى لحظة التصوير والارســال ، من تلك الأشعة الحمــراء التى لا يمكن أن ترى بالعين المجردة .

ودخلنا فى مناقشة فنية طويلة كنت ندا له فيها . حتى اضطر أخيرا ان يشفع أقواله بعرض سينمائى قائلا :

ـ اليك هذا الفيلم . تلك هى سيارتك .

واستطرد معلقا على مشــاهد الفيلم ، التى ســجلت كل حركاتى وسكناتى فى الليلة السابقة ، منذ أن توقفت بسيارتى الى أن حلقت الطائرتان فوق المنطقة التى توقفت بها ، الى القاء القبض على .

وكان من اليسير أن أفهم السر فى قصاصة الورق التى عثرت بها فى صندوق الكرانبرى برف الحصن . ان البيانات التى كانت مدونة بها كانت الاسلوب القياسى للاتصال بالغواصات وهى تحت سطح الماء . وتبينت أننى أحسنت صنعا بعدم الاحتفاظ بهــذه الورقة وباعادتهــا الى الصندوق .

- ٢٥ -

كانت الأيام التالية من الأيام الزاخرة بالحركة والاستجواب . وفحص الأطباء والاختبارات ، تعرضت فيها لكل تجربة قاسية يمكن أن يتعرض لها انسان . ولقد أنساني كل هذا نفسي وكياني كله ، حتى أنني بدأت أشك في وجود جين أو دالبي ، وأحيانا كنت أشك في وجود ذاتي . وتوقف بي الزمن عند الساعة ٤ و٢٢ دقيقة التي توقفت عندها ساعتي من قبل ، عندما تعرضت معي لما تعرضت له من أعمال العنف عقب القاء القبض علي .

وفي يوم ما ، وربما كان هذا في ليلة ما ، قدم الى غرفة الانتظار رقم ٣ ، أحد ضباط جيش الولايات المتحدة برتبة كابتن . ولم أحاول أن أنهض من فراشي الذي كنت مستلقيا عليه . وكان في نحو الثانية والأربعين من عمره . وابتدرني قائلا :

- انهض على قدميك .

فرفعت كتفي مستخفا به .

- انهض والا ركلتك .

ثم وضع يده في جيب حلته الأمامي ، ليخرج ورقة بيضاء فضها قائلا :

- هذا أمر بابعادك ، موقع عليه من وزير الداخلية . انه من حسن حظك أننا نسلمك في مقابل تسليمنا اثنين من طيارينا ، والا كان مصيرك غير هذا .

- ولماذا تستبدلني انجلترا باثنين من الطيارين ؟

- انجلترا ! هو هو هو ! انجلترا ! انك لن تذهب الى انجلترا أيها الخنزير . انك ذاهب الى المجر . انهم سيكونون بحاجة اليك ليقتصوا منك لتعكير صفوهم .

- هو هو لك ! سأحتفظ لك ببعض ما يقدم الي .

ولم يكن بوسعى الا أن أسخر منه ، لأننى لم أحمل ما قاله عن تسليمى للمجر محمل الجد فى أول الامر ٠

غير أننى عدت للتفكير فيما سمعت جديا زهاء ساعتين ٠ وشعرت بعجزى عن القيام بشىء ٠ حتى الاتصال بدالبى وجين كان متعذرا على ٠ ولم يبد فى أفق تفكيرى بادرة أمل يمكن أن أعول عليها ٠

وقطع على حبل تفكيرى قدوم احد الأطباء بمحفة طويلة على عجل، ملحق بها عارضة عليها اثير وقطن ومحقنه ٠ وبعد أن تحسس دقات نبضى وقلبى ، وتفرس فى عينى ، سألنى ان أستلقى مسترخيا على محفته ٠ وصدعت بما أمرت به ٠ ولكننى سألته :

ـ كم الساعة الآن ؟

ـ الثانية والثلث ٠

ثم دلك ذراعى بالاثير ، وحقننى تحت الجلد ٠

ـ كم الساعة ؟

ـ الثانية والثلث ٠

ـ كم ، كم ، كم ٠ الساعة ، الساعة ، الساعة ٠

وأنكرت صوتى ٠ لقد كانت نبراته غريبة على ، كالصدى المعدنى الأجوف ٠ ورأيت الطبيب فى معطفه الابيض يتضاءل ويتضاءل ويبتعد عنى ويبتعد ، مع أنه كان لا يزال ممسكا بذراعى ٠ واختلط على ذهنى؛ واختلطت على الرؤية ، وشعرت بأننى أغوص ثم اطفو ، حتى غبت عن الوعى ، واسدلت على عقلى ستر الحجب ٠

وصعدت من أعماق فقدان الوعى ، الى سطح اليقظة رويدا رويدا٠ وطفوت من الظلمة التى غصت فيها ، الى النور الذى بدأ ينفذ الى ثنايا عقلى ويضىء عينى ٠ وبدأت أحس بآلامى . فبدأت أتحقق من أننى مازلت احيا واعيش ٠ ان جسدى يؤلمنى ، اذن فأنا اعيش ٠

واستطعت أن أرى ساعتى المحطمة على ضوء نافذة صغيرة ٠ وكانت

عقاربها تشير الى الساعة ٤ و ٢٢ دقيقة · تلك الساعة التى توقف عندها الزمن بالنسبة الى · وسمعت أصواتا عن بعد · ولم اتبين منها كلاما ، بل كانت أصوات أنات وزفرات ·

وبدأت أستعيد كمال وعيي ، واحس بحقيقة ما هو حولى ، قبل أن تستعيد عيناى قدرتهما على التركيز والرؤية المفصلة · واغمضت عينى واستسلمت للكرى · وقضيت أياما وليالى مرت ثقالا · وكانت ساعاتى أياما وليالى أسابيع · وكانوا يأتوننى بطعام تعافه النفس ، لا أمد له يدا الا بعد أن يعضنى الجوع بنابه · وكثيرا ما كانوا يعودون به دون أن أتناول منه شيئا · وكان الرجل الذى يحمل الى الطعام واحدا لا يتغير ، بشعره الاشقر القصير ، وبوجهه البارز العظام، وبحلته الرمادية اللون ذات القطعتين · وفى يوم ما ، بينما كنت جالسا على أرضية الغرفة فى ركن منها ـ اذ لم يكن ثمة بالحجرة آية قطعة من الأثاث ـ سمعت مزلاج الباب يرفع ، ليدخل منه كوبلاى خان، حامل الطعام الى ، ولكنه لم يكن يحمل طعاما فى هذه المرة · ولم اكن قد سمعت صوته من قبل لأنه لم يسبق له أن وجه الى كلاما · قال : « ان السماء زرقاء والأرض سوداء » · فتطلعت اليه بعينى دون أن أعقب بشىء ، وسمعته يعيد ترديد : « ان السماء زرقاء والارض سوداء » ·

ـ وماذا بعد ؟

فتقدم منى وصفعنى · ثم عاد أدراجه من حيث أتى بعد أن أحكم غلق الباب · واستغرق منى ادراك أن على أن اردد ما يقوله كوبلاى خان · يومين كاملين · وما ان جعلت من نفسى ببغاء يردد ما يقوله حارسى ، حتى كان الجوع قد بلغ بى أقصى مداه ، فأتيت على طعامى دون أن تعافه نفسى · وكنت أسمع منه أحيانا : « النار حمراء والسحب بيضاء » أو « الرمال صفراء والحرير ناعم الملمس » · فأسرع بترديدها بعد أن تعلمت ما يجب على عمله ·

ورايت ان اخط باظافرى علامات على الجدار ، أعرف بها عدد أيامى ، بصرف النظر عما مضى منُها ولم أستطع له عدا ٠

وبعد خمســـة وعشرين يوما من نتيجة حائطى المبتكرة ، أقبـل كوبلاى خان لينبئنى بأن هناك زائرا سمح لى باستقباله لفترة لا تزيد عن الست دقائق ٠ وبعد أن سمعت حركة غير عادية بالدهليز ، فتح حارس الباب لضابط مجرى شاب برتبة الكابتن ٠ وتحدث الى بلغة انجليزية سليمة قائلا : « لقد طلبت مقابلة السفير البريطانى » ٠

ـ لست أذكر ذلك ٠

ـ اننى لا أسألك ، بل أقرر واقعا ٠ ان سكرتيرا من السفارة قد قدم لمقابلتك بناء على طلبك ٠ وسأتركك لتنفرد به لست دقائق ٠

وانصرف مبتسما كما دخل مبتسما ٠ وفتح كوبلاى خان البـــاب لرجل طويل القامة ، قدم نفسه الى على أنه السكرتير الثالث بالسفارة٠ وصارحنى بأنه لا يوجد لديهم ما يثبت جنسيتى الانجليزية ، وان كنت أبدو كذلك فى عينيه ٠ وكان مرتبكا ، حتى أننى قلت له :

ـ معذرة يا سيدى ، أرجو ألا تسىء فهمى ٠ هل لى أن أطلع على ما يثبت شخصيتك ؟

فضاعف هذا من ارتباكه قائلا :

ـ على الاطلاق ٠ ليس لدى مانع ٠

ـ لست أعنى أوراق تحقيق الشخصية أو ما الى ذلك ٠ انك تفهم ما أعنى ٠ أريد أن أرى أو أسمع منك ما يدل على أنك على اتصال غير منقطع بمجريات الأمور فى بلدى ٠

وألقى على مسامعى الكثير مما أبغى ، وأردف معتذرا عن عـدم استطاعة السفارة أن تقوم بشىء من أجلى موضحا الاسباب ٠ كما لاحظت من أقواله أنه كان شديد اللهفة ليعرف منى ما أنا بسبيل الافضاء به عن دالبى وجهازه ٠ وما اذا كنت سأتهم أحدا منهم بشىء ، وماذا سيكون من أمر أقوالى أمام شرطة المجر فى حالة استجوابى ٠ وانصرف ، وتمنيت

لو لم يحضر • وما كان أغناني عن هذا الذى صارحني به ، من انني لم أعد من رعايا بريطانيا •

وعاد سكرتير السفارة البريطانية ثانية ليزورني ، وكان في هذه المرة بصحبة الضابط المجرى الذى تولى عنه الحديث في حضوره قائلا :

ـ ان حكومة جلالة الملكة لا يمكن بأى حال ما أن تعتبرك من رعايا بريطانيا • وبناء عليه ، ستكون محاكمتك في ظل القانون المجرى •

ولم أسمع من سكرتير السفارة البريطانية تعليقا على ذلك ، غير ابداء أسفه • أما أنا فعقبت على هذا الاعلان قائلا :

ـ محاكمة ؟

واستلقيت على الأرض ـ فراشى الوثير الجديد ـ لاجئا الى النوم لعله أن يريحنى مما يضطرب به ذهني وتجيش به نفسي • ولم يكن تفكيرى ليدور الا حول ما يتردد على طرف لساني في همس : « اذا لم تخرجونى من هنا بأسرع ما يمكن ، أيها الزملاء الأعزاء • فان الكثير سيحيق بكم » •

وكان ضابط الجيش يأتى لزيارتى بين يوم وآخر ، لأنه قد عين للدفاع عنى • وفى أول زيارة له بصفته الجديدة ، تلا قائمة الاتهام التى استغرقت منه حوالى الساعة • وكانت باللغة المجرية ، ولكنه كان يترجم لى بعض عباراتها الهامة ، « كعدو الدولة » و « الخيانة العظمى » و « التآمر ضد الشعب » و « الامبريالية » و « الرأسمالية » •

وبلغت علاماتى التقويمية أربعة وثلاثين عدا • ولم أعد ستيف ريفز من شدة ما قاسيت وطول ما عانيت • وكنت اشعر بأن حالتى الجسمانية والعقلية فى تأخر مستمر • وما لم تقع المعجزة التى تخرجنى من سجنى هذا ، فانه لن يتبقى من ذاتى التى أعرفها وأحبها شىء • ولكن ، أنى لى هذه المعجزة ! انني يجب أن أكون « هودينى » آخر لأنفذ من هذه الجدران وأقتحم هذه الابواب •

وفى اليوم الخامس والثلاثين ، قلبت الامر على كل وجه ، محاولا أن أستجمع شتات ذهنى وأفكر فى هدوء وتعقل • ان سبيلى الوحيد هو هذا الباب • انه السبيل الذى لا بديل عنه لأخرج من سجنى • ولم يشذ من حراسى عما كان متبعا من احكام غلق الباب ، سوى حارسى العجوز الذى كان يتولى نوبة الحراسة فى بعض الليالى ، ويقف خارج الباب أحيانا ليراقبنى من فرجته • والليل هو الوقت المناسب لمحاولة تسللى مستترا بظلامه • وقررت أن أبدأ بهذه المحاولة فى تلك الليلة• وتظاهرت بأننى مضطجع على الحائط لأستريح ، بعد أن أحكمت قياس خطواتى الى هدفى ، وهو الباب • وعندما اقبل الحارس ، لم يقترب منى بما فيه الكفاية • ولم أتحرك بدورى • وخلدت الى النوم • ومرت ليلة أعقبتها أخرى • وفى الليلة الثالثة ، وقف الرجل فى فرجة الباب يقدم لى سيجارة • فصفقت الباب بكل قوتى فى وجهه ، واصطدم برأسه صدمة سقط فى أعقابها على الارض فاقد الوعى • وأسرعت بسحبه الى الداخل • وجردته من حلته وغطاء رأسه وأسرعت بارتدائهما فوق ملابس السجن ثم أحكمت غلق الباب وتسللت الى الخارج فى الظلام • ومن الدهليز هبطت الدرج الى الردهة الرئيسية ، حيث أبصرت بشعاع من الضوء ينفذ من قاعدة باب على يمينى ، كانت تنبعث من غرفته موسيقى أمريكية هادئة • واتجهت صوب الباب الرئيسى الذى لم يكن معينا عليه حرس • فقررت الا أقربه لما ساورنى من شك ، واتجهت الى اليمين ناحية باب احدى الغرف المظلمة ، وفتحته ثم دخلت منه الى حجرة استطعت أن أرى بها على ضوء القمر بعض صواوين الملفات والكتب التى تغطى جدرانها • وتحسست بأصابعى اطار النافذة لأتحقق مما اذا كانت متصلة بجهاز انذار كهربائى من عدمه • وفعلا وجدت أسلاك الاتصال التى يمكن ان تؤدى مهمتها فى حالة فتح النافذة • وبينما كنت أقوم بقطع هذا الاتصال وطأت قدمى قلم رصاص أحدث صوتا عاليا فى هذا السكون الليلى • وتوقف صوت الموسيقى التى كانت تنبعث من جهاز الراديو فى

الغرفة المجاورة · وخشيت ان يكون ذلك نتيجة للصـــوت الصـادر عن تحطيم القلم بقدمي · فأمسكت أنفاسي وأنصت · وسرى عنى لما سمعت الراديو يعود الى اذاعة موسيقى محطة ارسال أخرى ·

وفرغت من تعطيل عمل الجهاز بالنسبة للنافذة · وفتحت النـافذة وتسللت منها ففزا الى الحشائش المبتلة أسفل قاعدتها · وفى هــذه اللحظة بالذات سمعت الباب الأمامي يفتح ، ورأيت شعلة تتحرك بضوئها فى الغرفة التى كنت قد تركتها منذ دقيقة على الاكثر · ولم يحاول أحد أن يقترب من النافذة التيكنت قد أعدت ايصاد «دلفها» دون احكامغلقها ولكنها بدت للرائى من الداخل وكأنها لم تفتح ، وبالذات اذا كان هذا يعلم بأمر الانذار الكهربائى الذى عطلت فاعليته · وظللت قابعا فى مكانى حيث أنا لا أتحرك · ورأيت سيارة تسرع براكبيها ، غـير أننى لم أستطع أن أتبين شيئا مما كانا يقولان ·

ونهضت أستحث الخطى صوب مؤخرة المبنى · وكنت مطمئنا بعض الشيء الى ملابسي الخارجية الرسمية · وانتهت بى خطواتى الى الســور الخلفى الذى كان بارتفاع قامتى · وتحسست بيدى لأتبين ما اذا كانت به أسلاك شائكة أو قطع من الزجاج المدبب · ولما تأكدت من عدم وجود شيء من هذا القبيل مددت ذراعى وقبضت بيدى على أعلى الجدار تهيـؤا للقفز · وليس من شك فى أن هذا يتطلب من القوة التى تعيننى على القفز مالم يكن متوفرا لى فى هذه الآونة الاخيرة · وسمعت نباح كلب عن قرب منى · وتلفت ناحية مبنى السجن ، فرأيت ضوء شعلة كاشفة يتحرك فى برج المراقبـة · لئن اتجه الضـــوء الى ناحيتى ، فان أمرى سينكشف · وبكل ما اوتيت من قوة أسرعت باعتلاء السور ، قبـل أن تتم الانوار الكاشفة دورتها ، ثم القيت بنفسى فى الناحية الاخرى منـه فى نفس اللحظة التى سلطت فيها الانوار الكاشفة على البقعة التى كنت أقف بها منذ بضع ثوان · وكان بودى الا أنهض من هذا الفراش من العشب الوثير ، لأنعم مستلقيا باستنشاق نسيم الليل النقى ونســيم

الحرية العزيز على النفس . وكنت متعبا مجهدا منهوك القوى . ومع ذلك فقد كان على أن أنهض وأواصل خطاى لأستكمل حريتى ، وأنطلق بعيدا عن سجنى ومكان أسرى . وبعد قليل ، تعثرت خطاى فى بعض الاعشاب اليابسة والاسلاك ، فسقطت على الارض محاولا أن أتخلص منها . وأبصرت بشعاع من الضوء فوق رأسى وظل رجل يتوسط اطاره قائلا :

- من هناك ؟ ابتعد عن « نباتى المعترش » ، أيها الغبى !

وفى هذه الدقيقة ، سمعت ساعة تدق العاشرة مساء .

- ٢٦ -

قد يكون من اليسير الآن أن أدعى أننى كنت أعرف الاجابة عن كل ما يتعلق بمعميات هذه المرحلة . من اليسير أن أزعم بأننى كنت أعرف أنهم يحتجزوننى فى قصر كبير لحساب لندن الى آخر ما هو من هذا القبيل . كلا . ان شيئا من هذا لم يحدث . لقد خيل الى شىء من هذا القبيل ، ولكن حدسى تبدد مع الايام ، وحل محله يقينى بما كنت أعانيه من عذاب الجوع والحرمان والمعاملة غير الكريمة التى كنت ألقاها من كوبلاى خان ، هذا اليقين الذى باعد ما بينى وبين فكرة أن لندن كانت قريبة منى ، لا تكاد أن تبتعد عن سور الحديقة المحيط بسجنى . ولذلك بدأت أفكر فى الهرب حتى اختمرت الفكرة فى رأسى ، ثم استجمعت كل قواى لأخرجها الى حيز التنفيذ والعمل الجدى .

وما دمت قد وفقت فى خطوتى الاولى ، فلن يكون من العسير أن أدبر أمرى للهرب من منزل مستر كيتنج ، « ألف كيتنج هو اسمى » ، كما أخبرنى بذلك صاحب الحقل الذى تعثرت به ، بعد أن أخبرته بقصتى المزعومة عن مشاجرتى مع زوج أختى الذى كان ثملا ، وعن

محاولته القضاء علي مما اضطرني الى ان اطلق ساقى للريح هربا منه •

واستدرت هذه القصة المختلقة عطف ألف كيتنج علي وضاعف من ذلك ما كنت أبدو به من سوء حال بعد أن لطخت الأوحال وجهي وثيابي، وتناثرت دماء يدى نتيجة لمحاولتي الفكاك من أسلاك واعشاب نباته المعترش • ولما لاحظت أن ألف يتأمل في فضول حلة حارسي قلت له : « لقد كنت مضطرا أن أجد لي عملا • حيث عينت حارسا ليليا ، ليسهل علي النوم في أي مكان نهارا • وسأدفع ثمن ما الحقته بنباتك من خسائر » •

فأومأ برأسه آسفا • وأخرج من جيبه صندوق « نشوق » دعاني الى مشاركته في الاستمتاع بشيء منها ، ولكنني اعتذرت شاكرا ، واعدا اياه بصندوق جديد بدلا من صندوقه الذي كاد أن يبلى •

فشكرني ودعاني لأغتسل • ورجوته أن يرافقني في الطريق ، لأحتمي به في حالة لقائي بزوج أختي ، الذي لن يثير المتاعب ما دمت في صحبته •

فوافق متحمسا • وحتى لو أثار المتاعب ، فاني كفيل بأن أوقفه عند حده • لست ممن يطلقون سيقانهم للريح أمام أمثاله أو يولون الادبار منهم •

وقلت له مودعا : « اني لشاكر لك كل ما كلفتك من عناء ، وسأبعث اليك بتعويض ما أتلفت يوم الجمعة » •

ـ ولكننا في يوم الجمعة •

ـ أعني يوم الجمعة القادم ، لأنني أعطيت لزوجتي أجرى عن هذا الاسبوع •

ـ لا عليك من هذا •

وفي آخر لحظة وهو يودعني عند محطة الاتوبيس ، منحنى ستة بنسات وبعض قطع من العملة النحاسية ، وشيعني بنظرة عطف ، وأنا أستقل الاوتوبيس •

- ٢٧ -

سمعت عامل الترنك يستفسر من تشارلى عما اذا كان يقبـل الاتصال بمكالمة محـولة عليه بالدفع ، فوافق . وبعدها ضـغطت المحول « ا » قائلا : « هذا صديق لريج » .

ـ لقد تبينت صاحب الصوت .

ـ مستر كافنديش ، اننى أواجه بعض المتاعب .

ـ هكذا ؟ هل تسلمتها ؟

وكان يشير بهذا الى البرقية التى بعث بها الى فى توكوى .

ـ أجل وشكرا .

ـ ماذا بوسعى أن أقوم به من أجلك ياولدى ؟

ـ هل تستطيع ان تقابلنى الآن ؟

ـ بكل تاكيد ، اين ؟

ـ شكرا .

ـ أين ؟ لم تخبرنى بمكان اللقاء .

فتوقفت قليلا ريثما أعد ما أخبره به : « فى سجن مظلم تحيطه من كل جانب النيران التى يتصاعد منها لهب لا يضىء » .

ـ قد لا تفهم من ذلك شيئا ، ولكنها كانت تعنى الكثير لميلتون وتشارلى .

ـ لقد أدركت ما تعنيه . سأوافيك هناك فى ثلاثين دقيقة وسادخل قبل ان تحضر وادفع لك . هل تريد شيئا خاصا ؟

ـ أجل . انى أبحث عن عمل .

فضحك تشارلى وانهى المكالمة .

لم يكن هنالك أضواء داخلية . غير أنه من خلال النوافذ الضخمة التى تعتبر أحد جدران الحجـرة ، كانت تنفـذ أضـواء تمكن من بالداخل من رؤية ما بالخارج . وكان تشارلى ملتحفا بمنشفة ، واقفا كالشبح بين سحب البخار ، وسمعته يقول لى :

ـ يالها من فكرة • انها فكرة لا باس بها • لقد اتيتك ببعض ببعض ثياب ريح • ان مقاسه يكاد أن يقارب مقاسك • ان هذه الحمامات التركية مهدئة للاعصاب •

ـ هل تعرف يامستر كافنديش ، لم اجد من أتصل به غيرك • وكان لا بد لى أن الجا اليك •

ـ ولو كنت فعلت غير هذا ، ولجأت الى غير العم تشارلى ، لكنت غضبت منك وحاسبتك حسابا عسيرا .

ان لتشارلى روحه المرحة • ولطالما ألقى على مسامعى أبياتا من قصائد ((الفردوس المفقود)) ، في هذا الحمام التركى وفي غرفة البخار هذه بالذات • ورأيته يتأمل السحجات فى وجهى والندبة التى فى صدغى ، قائلا فى صوت رقيق « وكأنى بك وقعت فى فخ شائك » •

ـ وهذا ما كان فعلا . والأدهى من ذلك أنهم بعثوا الى ليتقاضوا ثمن ما ألحقت بهم من خسائر .

واصر تشارلى على أن أذهب معه الى منزله ، لأنه لاحظ ماكنت عليه من ارهاق وضعف • وكاد أن يحملنى الى سيارته الهليمان التي كانت خارج باب الحمام التركى فى شارع جيرمين •

ولما استيقظت في صباح السبت ، وجدتنى في فراش تشارلى ـ الذى تركه لى وقضي الليل على أريكته . ونفذت الى أنفى أرومة البن المغلى واللحم المقدد ، مع ما كنت أشعر به من دفء المكان وهدوء جوه .

ولست ممن يتقنون تقدير الاشياء عدا ، ولكننى أحاول ذلك بتقدير عدد ما يوجد من كتب بشقة تشارلى ، بحوالى ثلاثة آلاف كتاب . بمعنى أنها كانت تغطى جميع جدران منزله .

وكنت جالسا بغرفة المعيشة اليومية ، عندما أقبل تشـارلى يحمل أقداح القهوة وقطع اللحم المقدد قائلا :

ـ ها قد نهضت من فراشك أخيرا .

ـ أوه ، لست أدرى كيف أشكرك .

ـ هل يضيرك أن تستمع لشيء من الموسيقى ؟

ـ كلا ، بل انى لفى امس الحاجة اليها ٠

ودارت الموسيقى بالحركة الثانية من المقطع ٤١ من سيمفونية موزار ٠ وحملنى اللحن على اجنحة الخيال الى تلك الامسية البعيدة التى كنت أجلس فيها مع أديم نستمع الى هذا اللحن الصادر من راديو الفيلا التى أقمنا بها على مشارف لبنان .

وبعد أن فرغت من تناول افطارى ، جلس تشارلى يقرأ مجلة الانكونتر ، ونهضت الى غرفة النوم لأستريح قليلا بعد أن شعرت ببعض الاجهاد يعاودنى ، ولأننى كنت أوثر أن انفرد بنفسي لأستعرض كل ما مر بى ، بعد أن سردت على مسامع تشارلى كل ما كان من امرى ولأننى كنت أريد أن أفكر فيما أنا فاعل بعد مغادرتى لمسكن صديقى الذى لا أريد أن اشركه في أمرى او أورطه فى مشكلات حياتى، وبالذات هذه المشكلات الحساسة الخطيرة ٠ فماذا عساى أن افعل ؟

ان دالبى ، فيما يبدو ، يجب أن يستبعد الى حين من تفكيرى . وكذلك كل من يعمل معه . وحتى روس لم يكن ضمن قائمة من أود أن ألجأ اليهم . واذا ماتقدمت الى القيادة العليا للجيش ، فسيسمع دالبى بذلك قبل أن يجف حبر الطلب الذى أتقدم به . اذن فبمن أتصل ولمن ألجأ ؟

أو ألجأ لرئيس الوزراء ؟ لقد راودتنى هذه الفكرة لنصف دقيقة . ولكن ماذا ترى بوسع رئيس الوزراء أن يفعل ؟ انه سيستشير في ذلك أعضاء مجلس الوزراء . وهؤلاء سيقومون بالتالى باستشارة جهاز الأمن المسئول . ومن عساه أن يكون رئيس الجهاز المذكور ؟ انه دالبى . وهكذا تعود الدائرة فتضيق حتى تتركز فى دالبى . انه المخرج الوحيد لما أنا فيه من مأزق .

اذن ، فلا معدى لى عن الاتصال بدالبى مباشرة ٠ اليس هو من أعمل معه فعلا ؟ ولكن كيف يتسق هذا الوضع مع ما سبق من ملابسات وظروف . اننى شخص مشكوك في ولائه ، حتى كادت حكومتى أن تضحى بى . ولكننى بالرغم من كل ذلك ، مازلت على قيد الحياة .

وتذكرت فجأت بارني وهو جثة هامدة في سيارة المولد الكهربائى. وتساءلت عما اذا كان ما دار بخلدى صحيحا . ان في ذلك بعض الصحة . ولكن اذا ما كان بارني قد قتل لمجرد تحذيره لى ، فماذا يكون مصيرى وأنا صاحب الدور الاول ؟ ترى ماهى حقيقة موقف الامريكيين منى ، وما هى حقيقة موقف المجريين ؟ وهل كان دورهما أصيلا ، أم تراه كان ... ؟ كلا ، فلنستبعد هذا الاحتمال الآن .

وظللت أقلب الامر هكذا على كل وجه وناحيـــة . مســـتعرضا مشكلتى من كل جانب لها ، لعلنى أن أستبين كنهها أو أميط اللثام عما اكتنفها من غموض دون جدوى ، وكنت أعود من حيث بدأت ، لا أجد لها حلا . وغلبنى النعاس من فرط ما نالنى من اعياء ذهنى .

وصحوت من نومى لأجد تشارلى واقفا أمامى يحمل قدحا من الشاى وقطعا من البسكويت قائلا ، لقد كنت تصيح فى نومك بمـــا لم أستطع أن أتبينه . ومر بى يوم السبت هكذا فى دعة وسكون وكذلك كان حالى فى يوم الاحد . ولقيت من رعاية تشارلى وحدبه ما أخجلنى . وفى مساء الأحد ، جلست استمع الى الراديو ، وأتأمل قصاصة الورق التى أمامى ، والتى اعتزمت أن أدون بها خطة عملى .

وشعرت بتحسن بعد ما أخلدت له من راحة ، ونعمت به من طعام طيب . ولكننى ، مع ذلك ، لم أعد لحالتى الطبيعية .

وتمعنت في الورقة التى كانت بيدى ، ووجدت أننى وضعت خطا تحت اسم دالبى . ثم أشرت بسهم من هذا الخط الى اسم أليس فى ناحية ، واسم روس فى الناحية الاخرى . وذلك لأن دالبى لو كان يزمع التضحية بى ، فانه لن يجد من يعاونه في ذلك خيرا من روس ورجال المخابرات العسكرية . وقرنت بين اسمى موراى وكارسويل ، فيما وضعته أمام اسميهما من علامة استفهام تعنى الجهالة ، بعد أن ألحقهما دالبى بقسم من أقسام وزارة الحرب التى عفا عليها الزمن . ثم كان بالقائمة اسم تشيكو . الذى له عقلية لا تزيد عن عقلية طفل في الرابعة ، والذى كان آخر اتصال بينى وبينه عن طريق التليفون

عندما كان بناحية جرانتهام . أما جين ، فهى شخصية أخرى محيرة. صحيح أنها جازفت بالكثير لتساعدنى في نوكوى ، ولكن الى أى حد كانت مخاطرتها هذه وقررت أن أبدأ بلقاء دالبى غير انه كان ثمة أمر يجب أن يتم قبل ذلك .

وما أن وافت الساعة التاسعة والنصف مساء ، حتى استقر رأيى على أن أسأل تشارلى خدمة أخرى . وفى تمام الساعة العاشرة مساء ، كان قد غادر المنزل . وخيل الى ان كل شىء يعتمد على ما سيقوم به تشارلى . وجلست أتأمل صورة ابنه ريج الفوتوغرافية الكبيرة في زيه الرسمى . وتذكرت ما كان من أمر مقتله عندما داهمته سيارة نقل في بروكسل بعد أن اشترك في الحرب طوال أربع سنوات، وكيف جئت بنفسى لأنقل النبأ المشئوم الى والده .

وتذكرت ما كان من والده بعد أن حملت اليه النبأ المفجع وتفصيلات مقتل ولده ، عندما دخل الى المطبخ يعد لنا القهوة ، وعاد ليتحدث فيما كان الناس يتحدثون به في تلك الأيام ، وفيما يتحدث به كل من يرغب فى أن يبتعد بحديثه عما يجيش بصدره من آلام .

وها هى الايام ، وتنقضى ، ويدور القدر ، لاعود لأجلس فى نفس الغرفة بين كتب كافنديش فى انتظار عودته .

وما أن وافت الساعة الحادية عشرة وخمس وعشرون دقيقة مساء، حتى سمعت وقع خطواته عائدا ليقول لى :

ـ انها شفرة لا أثر لرموزها في أى مكان . انها لم تكن وليس لها وجود .

ـ أو تمزح ؟ كان يجب عليك أن تبحث عن الاسم بين رجال الجيش الهندى .

ـ اننى لم أقتصر على هذا في بحثى . لقد اتصلت بمكتب الاحصاء في كلكتا . انهم لا يعرفون ج ـ ف كارسويل . ولا يوجد غير ب . ج . كارسويل ، ولكنه لا يتجاوز السادسة والعشرين من عمره .

ـ كلا . ان هذا يبتعد بنا عنه كثيرا .

ـ هل أنت واثق من أن الاسم صحيح ؟ ربما كان كارويل ؟

ـ كلا . كلا . انني متأكد من حقيقة الاسم . لقد قمت بالكثير من أجلي .

ـ لكم يسرني هذا .

وكنت أشعر بأن الرجل يقول ذلك من أعماق قلبه ، دون تكلف أو مجاملة . ثم قلت له :

ـ بودي لو أدخل معك في تفاصيل القصة لنستعرض دقائقها معا ، عسانا أن نهتدي معا لما يجب عمله .

ـ أفضل ألا تفعل ذلك الآن . لقد عرفت الكثير من أسرارها فعلا. سآوى الى فراشي الآن . واذا ما ألهمت حلا ، خبرني به .

ـ طابت ليلتك . سأجتهد أن أضع النقط على الحروف لأخرج بنتيجة منها .

ولكنني كنت أشك في انه سيتيسر لي ذلك . فقد كانت القصة بالغة التعقيد ، أقرب ما تكون للاحاجي والألغاز .

- ٢٨ -

يوجد بالقرب من ميدان ليشستر بعض حوانيت لبيع الصحف، اختصت بهذا الطراز من المجلات الجنسية ، كما اتخذها البعض مركزا لتلقي الرسائل التي لا يودون أن تسلم لهم بمنازلهم .

ومن احدى هـــذه الوكالات تسلمت الرســـالة الواردة باسمي المزعوم . وأسرعت بفضها ، لأستخرج ما بها ، وما كنت أعـرف أنها تحتويه ، من مفتاح جديد ، وجواز سفر صادر من المملكة المتحدة ، وجواز سفر أمريكي (مرفق به بطاقة ضمان اجتماعي بنفس الاسم) ، وجواز سفر من سكرتارية الامم المتحدة . ومع كل جواز سفر رخصة

قيادة دولية وبعض الفواتير والمظاريف المستعملة بنفس الاسم الوارد بالجواز • كما وجدت دفاتر شيكات صادرة من البنك الملكى ، بكندا ، ومن بنوك مانهاتان ووستمنستر وبنك داى ايشى بطوكيو ، وايصال رهن وعشرين ورقة مالية من فئة العشرة شلنات ، وبطاقة تصريح مزيفة منسوبة الى شرطة العاصمة •

ووضعت المفتاح ، وايصال الرهن ، والتصريح المزيف وأوراق البنكنوت فى جيبى ، وأودعت سائر المحتويات الأخرى فى مظروف جديد • وتوجهت الى صندوق للبريد حيث ألقيت بهذا المظروف ليعاد الى نفس العنوان . ثم أوقفت سيارة أجرة أقلتنى الى أحد بنوك المدينة حيث تقدمنى كبير الكتاب الى القبو . وهناك قصدت الى صندوق الأمانات الذى فتحته بالمفتاح الذى معى وأخرجت منه بضعة أوراق بنكنوت من فئة الخمسة جنيهات . وكان الكاتب قد تركنى بمفردى . وعندئذ أخرجت من تحت الأوراق المالية الأخرى صندوقا من الورق القوى فضضت أختامه لأستخرج منه مسدسا أوتوماتيكيا عيار ٣٢ ، أسرعت بوضعه فى جيبى ، كما وضعت فى الجيب الآخر بعض الطلقات •

وغادرت البنك متجها الى شارع جاردنر حيث قصدت بنك الرهونات • وهناك دفعت مبلغ ١١ جنيها و ١٣ شلنا وتسلمت حقيبة سفر ، كان بها حلة من الصوف داكنة الاخضرار ، وسروال من القطن ، وثمانية قمصان ، وأربطة عنق ، وجوارب ، وملابس داخلية ، وزوجان من الأحذية • كما كان بجيوب الحقيبة الجانبية أمواس للحلاقة ، وماكينة وكريم حلاقة ، ومشط ، ومعطف من البلاستيك • مطواة ، وبوصلة ، وتحت بطانة الحلة اخفيت اوراق بنكنوت من فئات مختلفة • كما وجدت مفتاحا آخر لصندوق ايداع آخر • وكان هذا أيضا بمثابة بوليصة تأمين جاسوسية •

وحجزت لى غرفة بفندق قريب من ميدان بدفورد . ثم توجهت لمقابلة تشارلى بطريق توتنهام كورت • ووجدته فى الساعة المحددة كما هى عادته دائما ، حيث كانت الساعة ١٢و٧ ظهرا . وخلعت معطفى

الواقى من المطر وسلمته له ، وأخرجت معطفى البلاستيك من جيبى • وأخبرته بأننى تركت مفتاح مسكنه بغرفتى بالفندق . وأوصانى خيرا بنفسى ، ورجانى أكثر من مرة أن أتصل به اذا ما كنت بحاجة الى معونته متى شئت .

وتركت تشارلى مودعا • وتوجهت الى شارع شفتزبرى ، حيث دلفت الى بناية كتب على بابها بالاحرف البارزة « مكتب ووترمان لوكالة البوليس السرى العالمية . » ودخلت لأجد مخبرا خاصا جالسا الى مكتبه • ورأيت من عينيه أنه ساءه ألا أستأذن في الدخول ، ولكنه لم يواجهنى بذلك خشية أن يفقدنى كعميل . وجلست دون أن يأذن لى بذلك ، فبادرنى قائلا وقد بدا ممتعضا :« هل من خدمة أؤديها ؟ » . وأجبته بأننى فى مأزق حرج لا أحسد عليه . وأن مشكلتى عائلية بالغة التعقيد .

وادليت اليه بما شئت من روايات عن زوجتى والرجل الآخر الذى دخل الى حياتنا وأفسدها . واتفقنا على الأجر المناسب ، وعلى ما يجب أن يتبع .

وعدت الى مسكن تشارلى فى الساعة ٥و١٠ مساء • ودخلت من باب المبنى الرئيسى . وما أن بلغت منتصف الدرج حتى سمعت صوتا توقفت على اثره أرهف السمع وانصت . وانى لأدرك الآن أنه كان على أن أعود أدراجى وأغادر المبنى ، بل وقد تبادر هذا الى ذهنى • ولكننى لم افعل هذا ، بل واصلت ارتقائى الدرج صوب المرأة التى سمعتها تنتحب .

ودخلت لأرى عجبا . كان كل شىء فى الشقة مقلوبا رأسا على عقب ، مبعثرا هنا وهناك ، من ملابس الى كتب الى صحاف محطمة ــ وفى كلمة كان المكان أشبه شىء بميدان معركة . وبين ما وقععليه نظرى من هذه الاشياء وغيرها ، رأيت تشارلى يرقد جثة هامدة ، حيث ادركت ذلك لأول وهلة • والى جانبه وجدت قدح القهوة الذى كان يعتز به محطما متناثر الشظايا ، وكأنه لم يرض بأن يستعمله أحد

غير صاحبة . واخرجت من جيب تشارلى حافظة نقـوده ، لكى ازود الشرطة بدافع على الجريمة عند عدم العثور عليها . وما ان انتصبت قائما ، حتى وجدتنى وجها لوجه أمام امرأة لا تتجاوز الثلاثين من عمرها ، لا يسر مرآها الناظرين بعينيها الغائرتين فى وجهها الشاحب ووقفنا حوالى الدقيقة نتبادل نظرات التحدى والاستفسار ، ووددت لو اخبرتها بأننى وان كنت لم اقتل تشارلى ، فانها يجب الا ... ولكن كيف كنت أبدأ ؟ فوليت وجهى شطر الدرج بأقصى ما فى وسعى من سرعة .

وهكذا تزداد الدائرة ضيقا ، وكانى لم يكن لينقصنى هـذا المازق . ان الشرطة ستحصل من المرأة على أوصافى ، وسيجد رجالها فى أثرى . ان منظمة دالبى هى الجهة الوحيدة التى يمكن أن تساعدنى بما لها من سلطان ونفوذ .

وقفزت الى أوتوبيس من ميدان كامبردج ، وغادرته فى ميـدان بيكاديللى ، واستوقفت عربة ذهبت بى الى الريتز ، ومنـه استدرت سيرا على الأقـدام شرقا فى اتجاه بيكاديللى . ومن هنـاك اتجهت بعربة أخرى صوب شركة تاجير السـيارات فى نايتزبريدج . وكانت الساعة لم تتجاوز الخامسة وخمسا وعشرين دقيقة .

واستأجرت سيارة أوستن ٧ ، الوحيدة التى كانت مزودة براديو . واستعملت رخصة قيادة تشارلى التى وجدتها بحافظة نقوده . وكان هذا منى مخاطرة غير مأمونة العواقب ، اذا ما ذاع نبأ مقتل تشارلى ونشرت صورته بالصحف . وأدرت الراديو لأستمع الى أخبار الساعة السادسة . ولم يكن بها ما يستحق الذكر ، أو يتصل بما يعنينى .

وانطلقت بسيارتى من طريق الى طريق ، ومن ميدان الى آخـر ، وكانت وجهتى منزل دالبى . وقبل أن أصل الى فندق تيودور بحـوالى المائة ياردة ، أضأت النور الكشاف ، وتلقيت الاجابة على اشارتى من السيارة الفورد انجيليا التى كانت تقف امامه . وبعد أن تجاوزتهـا ،

تأملت المرآة العاكسة للطريق الخلفي ، لأرى مستر ووترمان ينطلق بسيارته خلف سيارتي .

وكان قد سبق لي زيارة دالبي بمنزله نهارا . وهو يقيم في بيت صغير من الحجارة ، يبعد عن الطريق الى الداخل بمسافة طويلة . وعرجت الى اليمين في الدرب الموصل الى المنزل . وتوقف ووترمان عند الجانب الآخر من الطريق . وكانت الامطار تتساقط رذاذا . وغادرت السيارة دون أن أغلق أبوابها ، وتركت مفاتيحها في « الدواسة » . وظل ووترمان قابعا في سيارته . وكانت الساعة قد بلغت السابعة مساء ، فتملكات لأستمع الى الاذاعة . غير أنه لم يرد بها ذكر لحادث مقتل تشارلي .

وواصلت طريقي الى المنزل على قدمي . وطرقت الباب بمقبض من نحاس في صورة رأس الاسد . وفتح دالبي الباب ، وحاول أن يكسو وجهه بامارات الدهشة والمفاجأة ، قائلا :

ـ أما زالت الامطار متساقطة ؟ تفضل بالدخول .

وجلست على الاريكة الكبيرة ، بالقرب من المدفأة أنعم بنيرانها التي تلقي بظلالها بين قدمي . ورحت أراقب دالبي بما يتفق مع ما يساور نفسي من شك . وقدم الي مشروبا تقبلته دون تردد . ثم ترك الغرفة لاحضار بعض الشطائر ، الامر الذي لم أدخله في اعتباري، لأنني لم أكن أريد أن أترك لدالبي فرصة للتفكير أو للغياب عن نظري . اذ قدرت أن بوسعه أن يتصل تليفونيا بجهة ما أو أن يعود حاملا مسدسا أو أي شيء من هذا القبيل .. ولكنه عاد أدراجه يحمل شطائر اللحم البارد . وكنت أشعر بالجوع ، فشربت وأكلت . وأخيرا قلت له :

ـ لقد كنت مسجونا .

ـ لست بحاجة لأن تخبرني بهذا .

ـ هل كنت تعلم ؟

ـ انه جاي . لقد حاول ان يبيعك لنا بالتالي .

ـ ولماذا لم تضبطه متلبسا ؟ لماذا لم تقبض عليه ؟
ـ انك تعرف جاى • انه صعب المراس لا يسهل الايقاع به • ومهما يكن من أمر فاننا لم نرد أن نخـاطر بك أو نعـرض حياتك للخطر •
ولم أعقب بشيء • فاستطرد قائلا :
ـ كان يريد أربعين ألف جنيه فدية لك • ونعتقد أنه قد يتمكن من تشيكو أيضا • ان هناك من يعمل لحسابه في الادارة الطبيةللولايات المتحدة • وذاك كان سـبيل تمـكنه منك فى توكوى • ان الامر بالغ الخطورة • وكان من الممكن أن ينتهى الى أسوأ من ذلك •
ـ لقد كادوا أن يقضوا على حياتى •
ـ لم أكن قلقا عليك • لقد كنت مطمئنا الى أن شيئا من ذلك لن يحدث • ما كنت أظنهم بقاتلى الاوزة التى تبيض لهم ذهبا •
ـ هكذا ؟ وهل كنت هناك لترى ما يقلقك الى آخر ••••
ـ ألم تر تشيكو هناك ؟
ـ كلا • لقد كان هذا مما خفف عنى وطأة ما كنت أعانيه •
ـ هل لك فى مشروب آخر ؟
ـ كلا • اننى أريد أن أنصرف لعملى • أريد مفاتيح المكتب •
ـ اننى ألح فى أن تمكث معنا لتناول العشاء •
فاعتذرت شاكرا • وتبادلنا حديثا وديا • وكنت لا افتأ أردد فى ذهنى أن تشـارلى قد قضى نحبه ، وأن دالبى اما أن يكون قد علـم بذلك وتجاهل الأمر ، أم أنه لا يعلم به فعلا • وبينما كنت افكر فى اخباره بالامر ، كان دالبى قد أخرج من خزانة بالحائط ملفين يتضمنان ما يدفع للعملاء فى بلاد أمريكا الجنوبية •
وسلمنى دالبى الملفين مع المفاتيح ، ووعدته باتخاذ اللازم فى الملفين قبل الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى • وكانت الساعة قد بلغت الثامنة الا عشر دقائق مساء وكنت متلهفا على الانصراف ، حيث اننى كنت قد اتفقت مع ووترمان على أن يلحق بى بعد ساعة • فنهضت مستأذنا

في الانصراف دون أن اذكر شيئا عن تشارلى كافنديش . واستقر رأيى على تأجيل الحديث فى هذا الموضوع ، عندما نكون بالمكتب .

وبينما كنت فى طريقى الى السيارة ، دار بخلدى أننى قد يقبض على بتهمة القتل قبل صباح الغد . وفكرت فى أن أعود أدراجى واقول لدالبى « لقد نسيت أن أخبرك بأننى متهم بجريمة قتل » .

وواصلت طـــريقى الى السيارة الاوستن التى انطلقت بها وتبعنى ووترمان ، حتى توقفنا عند جلوارنج أول ، وغادرت سيارتى الى حيث يقف بسيارته وسلمته المبلغ المتفق عليه نقدا . فقال لى :

ـ لقد سار كل شىء على ما يرام . لقد خيل الى أن الأمور ستتعقد عندما رأيت الرجل الصينى الضخم يطل من النافذة .

ـ مهلا . رجل صينى ؟ هل أنت واثق مما تقول .

ـ واثق مما أقول ؟ ماذا تظننى يا رجل ؟

واحتللت المقعد المجاور له فى سيارته ، وسألته أن يعيد على مسامعى سرد كل ملاحظاته تفصيلا . وبعد أن استمعت اليه فى اصغاء تام . قلت له :

ـ سنعود أدراجنا الى هذا المنزل فورا .

ـ لن أعود معك . لقد قمت بما كلفت به .

ـ سأنقدك أجرا اضافيا . سأدفع لك أتعابا أخرى .

ـ استمع الى . لقد كنت هناك فعلا ، وفرغت مما كنت تريد .

ـ كلا . انى عائد أدراجى سواء جئت معى أم رفضت وقد لايستغرق ذلك منى أكثر من مجرد التطلع عبر النافذة .

ـ ليس لهذا أى اتصال بزوجتك . وما أظن أن الأمر كما صورته لى . لقد أدركت ذلك لأول وهلة .

ـ فليكن . ولكننى وفيت بتعهدى . اننى من القسم المخصوص ببرايتون .

وأطلعته على بطاقتي المزيفة . وساعدني الليل على الا يتبين منهـا غير ظاهرها . فقال لي مندهشا :

ـ عجبا ! أنت من رجال الشرطة . انك لا تبدو كذلك .

ولكنني عدت لأؤكد له زعمي ، حتى أصبح بين الشك واليقين من حقيقة أمري . ولما وثقت من ذلك قلت له :

ـ انها قضية هامة وأريد أن تساعدني .

لماذا لم تستعن بأحد الكونستبلات من مساعديك ؟

ـ لم يكن هذا ممكنا ، لأننا خارج منطقة اختصاصنا .

انني أقوم بهذه المهمة بناء على تفويض خاص .

ـ هل هي مهمة سليمة ؟ فلست أود لنفسي أن أورط في عمل غير قانوني .

وأخيرا ، وبعد أخذ ورد بيننا ، وافق على مرافقتي في مقابل أجـر آخر . وعدنا أدراجنا بسـيارته الخاصة ، بعـد أن التقطت الملفين من سيارتي ، وأودعتهما المقعد الخلفي لسيارة ووترمان .

- ٢٩ -

وتقدمنا من المنزل على مهل ، بعد أن توقفنا بسيارتنا بعيدا . وكان الظلام حالكا ، الا من خصلات الضوء المتسربة من النافذة . واقتربت على أطراف أصابعي من نافذة الغرفة التي استقبلني بها دالبي من قبل . ورأيته يصب لنفسـه كاسا من الويسـكي ، وأمامه موراي جالسـا على الأريكة التي كنت أجلس عليها منذ قليل . وكانا يتبادلان الحديث مع شخص ثالث لم أستطع رؤيته لأنه كان خارج نطاق زاوية ابصاري . وساعدتني الظروف بعد برهة ليدخل هذا الثالث داخل نطاق الرؤية ، عندما نهض ليتناول كأسه من دالبي . ولم يكن هذا الرجل غير كوبلاي خان بلحمه ودمه . وما أظنه الا الصيني الذي رآه ووترمان يطل من

النافذة فى زيارتنا الأولى . وكدت ان أكتفى بما رأيت ، لولا اننى لاحظت انهم كانوا يتجهون بحديثهم الى شـخص رابع عبر الغـرفة . وتمنيت لو تحرك ليدخل فى منطقة الرؤية . وكان أن خدمنى الحظ بتحركه لأرى أنه لم يكن غير صاحبنا جاى .

واستبدت بى مشاعر جمة ، وتملكتنى الدهشة ، حتى أننى كدت أن أتعثر وافقد توازنى . يالله ؟ انه جاى أمير الشر يتبادل الحديث مع رئيس ادارتنا وفى بيته . اننى عاجز عن تصوير ما أحدثه هذا المشهد من تأثير فى نفسى . لقد كان هذا أعمق أثرا مما قد ينتابنى من مشاعر وفكر ، اذا ما رأيت مستر ماكميلان يسقط بطاقة عضوية الحزب الشيوعى من حافظته . ووقفت أراقب المشهد أمامى وأتتبع شخصياته كصبى صغير فى تتبعه لمشاهد سيرك عجيب . ان رؤيتى لموراى لم تدهشنى كثيرا . ثم كانت رؤيتى لكوبلاى خان فأثارت دهشتى . أما أن أرى جاى ضمن شخصيات هـذا المشـهد ، فكان أكثر مما يمكن أن تحتمله مشـاعرى واعصابى . ولم أدر كم من الزمن مر بى فى وقفتى هذه .

وعدت أدراجى يتبعنى ووترمان ، وأنا مطرق الرأس أفكر فيما رأيت وشاهدت . وعادت الى ذهنى ذكرى حديث بينى وبين دالبى قال لى فيه : « اننا نتحرك من طرفين متقابلين صوب غاية واحدة » . وتذكرت الرجلين اللذين رأيتهما عبر شارع مطعم تيرازا ، واللذين سرعان ما اختفيا عن ناظرى فى تيار المرور المزدحم بعد مغادرتهما لسيارة اجرة ، وأيقنت بأنهما كانا جاى ودالبى .

وكنت أسير بصعوبة أتلمس طريقى فى الظلام ، بعد أن أعيت عينى لحظات التحديق فى الغرفة المضاءة وما يجرى بها . ولم أشعر الا بيـد تمتد الى من هذا الظلام لتطبق على فمى تمنعنى من الصياح ، وبيد أخرى تهددنى بشىء معدنى فى ظهرى . وسمعت صوتا يهمس فى اذنى قائلا :

ـ انه انا يا سيدى . أنا موراى .

يا له من موقف مناسب للرسميات . « ياسيدى » لله درهم . وتذكرت رافن الذى قمنا باختطافه بالقرب من الحدود السورية ، وكيف

دهشت عندما سمعت دالبى يقول له وهو يحقنه : « آسف يا سيدى » • لعل « سيدى » هذه هى الكلمة التى لا يجدون عنها بديلا فى توجيه الخطاب الى ضحاياهم • واستطرد موراى قائلا :

ـ سأرفع عنك يدى الآن يا سيدي • لا تصرخ والا هلكنا معا •

وكنت أريد أن أومىء برأسى موافقة • ولكن موراى أساء فهم حركتى هذه ، فاشتدت قبضتا يديه على فمى وذراعى • ترى أين انت يا ووترمان ؟ أين أنت لتتقاضى باقى أتعابك ؟ ولكننى لم أجد له اثرا • وبعد أن ابتعدنا عن المنزل ، رفع موراى يديه عنى • وبدأ حديثه قائلا :

ـ لقد وطأت بقدميك أسلاك الانذار الداخلية •

ـ ما كنت أتصور أنها ممتدة الى هذا الحد •

ـ يتعين على أن أعود فورا الى المنزل ، لكن •• »

ثم تردد فى مواصلة ما كان بسبيل أن يتحدث به الى وكان هناك الكثير مما أريد أن أعرفه • ولم يكن الموقف ليسمح باعتراف مطول • ولكننى اقتربت منه هامسا : « استمع الى يا موراى • مهما يكن من أمر ما يجرى ، فانك لتعرف تماما أن كل هؤلاء يقعون تحت طائلة عقاب الخيانة العظمى • فاذا ما عملت بما أقوله لك ، وتصرفت بناء على اوامرى نجوت مما سيتعرضون له • والا ، فانك ستصبح عدوا لحكومة صاحبة الجلالة » • وأطرق موراى لحظة فى صمت • واستطردت قائلا : « ألست ترى بعينيك يا رجل ؟ لقد باع دالبى نفسه للشيطان • أم لعله كان عميلا ذا وجهين من سنوات مضت • ان مهمتى كانت فى التأكد من هذه المعلومات • اننى من وكل اليه اماطة اللثام عن حقيقة ما يجرى وما يقال• اننى أهيىء الفرصة لك يا موراى ، لأننى أعرف أنك لم تتورط بعد الى الحد الذى تورط فيه غيرك • هيا معى لنعمل معا على تجميع هذه الحقائق • ان أمرهم قد انكشف وعرف مصيرهم • لئن اتبعت نصحى فانك لن تندم » • وتوقفت • وقد خيل الى أن قصتى قد أنتجت اثرها• ولكننى سمعته يقول :

ـ انُ اسمى هو هاريمان • ورتبتى ليفتنانت كولونيل فى المخابرات العسكرية الخاصة • وأنت من يجب أن يطيع أوامرى فى الوقت الحاضر•

وكان صوته مختلفا عن صوت الجاويش موراى ، كما كانت لهجته غير ما ألفته منه • ثم استطرد قائلا :

ـ اننى لآسف لما صادفته وتعرضت له • ولكنك يجب أن تسرع بالانصراف من هذا المكان فورا • ان وضع يدنا على دالبى لن يكون كل شيء • • • »

وفى هذه اللحظة بالذات ، تلقى الرجل من ووترمان لطمة على رأسه « بالمفتاح الانجليزى » ، فسقط لا حراك به • وتأملت موراى أو هاريمان أو من عساه أن يكون ، وعرفت ما يجب أن أفعله فورا • ان على أن أسرع بالانصراف من هذا المكان كما قال لى ، وأتركه فاقد الوعى لدالبى وشركائه يتولون أمره • وكان ووترمان فخورا بما قام به ، مرددا سؤاله لى عما اذا كان لم يحسن صنعا ، وكنت أجيبه شارد الذهن •

وبينما كنا نستقل السيارة تأهبا لرحلة العودة التى لن تقل عن الساعتين زمنا ، رأينا الباب الامامى للمنزل يفتح ، بينما وقفت أمامه السيارة الرولز الكبيرة التى خرج دالبى والذى انطلق بها فى الطريق الى لندن • وقلت لووترمان ، عليك أن تلحق بهذه السيارة لأننى أريد أن ارى وجه سائقها •

وما أن بلغنا من الطريق منحنى ميلفورد ، حتى أتاحت لى أضواء المصابيح الكهربائية بالشارع فرصة تأمل السيارة الرولز الفاخـــرة التى لا ينتج مثلها السادة رولز ـ رويس الا للملوك ورؤساء الدول • السيارة المجهزة بكل وسائل الترف والراحة • هذه السيارة كان يستقلها جاى ، فى اطمئنان ودعة ، دون أن يتجاوز بها سرعة ٤٥ ميلا ، لأنه لم يكن فى عجلة من أمره •

- ٣٠ -

وتقدمتنا السـيارة الرولز حتى انحرفت من طـريق كروموبل الى حي برومبتون ، حيث القصور الفيكتورية المشيدة منذ عام ١٨٥١ ، والتى كانت تطل علينا من حالق مجـدها • وتوقفنا بعيـدا عن سيارة جاى ، واسرعنا بمغادرتها فى هدوء ، واقتربنا من المبنى الذى دخل اليه جاى من بابه الأمامى • وكان المبنى قطعة فنية من الذوق المعاصر ، بأبوابه الخشبية ونوافذه المسـدل عليها الستائر المعـدنية • واقترب ووترمان من لافتة الاسماء المتضمنة ساكنى البناية ، ولحقت به أطلع عليها •

وسمعنا من يقول لنا ، «يمكنكما الدخول الآن» • وفتح الرجل الباب الامامى بمفتاح كان معه • ولمحنا رجلين آخرين يقفان خلفنا ، فآثرنا ان ندخل ونصدع بما أمرنا ، وبالذات بعد أن لمع فى يد كل منهما مسدس أوتوماتيكى صغير من طراز بريتا ٣٤ •

وضغط الرجل الاول أحد الازرار الكهربائيـة ، ثم تحـدث فى الميكروفون الداخلى قائلا : « انهما اثنان • وقد يكون احدهما من رجال الشرطة » • اذن فقد كانوا يتعقبوننا ويراقبون حركاتنا • وبعـد ذلك سمعت صوت جاى قائلا : « ضعوهما تحت كاشف الاسرار ، ثم ائت بهما الى يا موريس » • وتأملت ووترمان لأرى علامات الخيبة وقد اكتست بها ملامح وجهه • اننا لم نكن بأكثر من غافلين ساذجين ، تعقبهمـا الغير طوال الطريق ؟ كان يجب أن نكون أكثر يقظة وحذرا ، وكان من البديهى أن نتوقع من هذا الاتصال بين دالبى وجاى الكثير • وتساءلت عما اذا كان دالبى قد اتصل بجاى تليفونيا ليخطره بأمر موراى ، الذى عثر عليه فاقد الوعى بحوض الزهور •

وكانت جدران البهو مغطاة بالمرايا السوداء • وأوقفونا تجاه المرآة الكبيرة • وجردنى موريس من سلاحى • وكان شديد الحذر فى كل حركاته ، مما يدل على أنه يتقن عمله ويدرك ما يجب عليه ان يقـوم به • ثم اقتادونا الى الطابق الاعلى •

وأدخلنا الى غرفة الجلوس الفاخرة الاثاث • ورأيت فى الطرف الآخر منها ، منضدة من الرخام الاسود متوسطة الارتفاع ، تحيط بها مقاعد كبيرة من الجلد الاسود ، تواجه جهاز تليفزيون يناسب فخامة الحجرة وأثاثها •

وسمعت صوت جاى المدوى من الباب المفتوح ، يدعونا للجلوس • ورأيت حراسنا الثلاثة ينسحبون كما ينسحب الممثلون خلف ستار المسرح ، وان كنت واثقا من أنهم لن يبتعدوا عنا كثيرا •

وقلت بصوت مرتفع موجها الكلام لجاى الذى لم أكن قد رأيته بعد : « هذا مستر ووترمان • من وكالة شرطة ووترمان السرية • لقد استأجرته بعد ظهر اليوم » • ولما لم أسمع ردا أو تعقيبا ، ضاعفت من ارتفاع نبرات صوتى ، كمن يخاطب أصما لا يسمع بسهولة : «أظن أننا لا نريد شيئا من ووترمان بعد • ولا مانع من أن ينصرف الى منزله » •

وبعد فترة صمت سمعت صوت جاى قائلا : « هل أنت مدين لمستر ووترمان بشىء ؟ »

ـ خمسة عشر جنيها •

وسمعت أزيزا خافتا ، ودخل بعده موريس ، ووقف ساكنا حتى سمعنا صوت جاى يصدر تعليماته قائلا : « موريس • بعد أن يتسلم مستر ووترمان شيكا بمبلغ خمسة عشر جنيها ، دعه ينصرف » • وانصرف مستر ووترمان مغادرا الغرفة بعد أن ودعته •

وكنت أريد أن أرى ماذا يفعل جاى فى مكانه الذى يوجه الينا الخطاب منه • وكنت أسمع خطواته فى الغرفة الصغيرة الملحقة بالغرفة التى أقف بها ، ولا يفصلهما باب موصد • وخطوت نحو هذا الباب لأرى ماذا يفعل • ولم أكن لأتوقع أن أجده جالسا الى منضدة مطبخ ، منهمكا فيما كان يعد ويجهز • قال لى :

ـ هل أنت ممن يحبون الطهو ؟

ـ قد أصبح كذلك •

ـ هذا أفضل •

ـ الم يكن لاروتسى هو الذى قال ما معناه « ان حكم الامبراطورية كطهو سمكة صغيرة » ؟

ـ وعلى حد قول مونتانى « ان عظماء الرجال يفاخرون بقدرتهم على حسن اعدادهم لسمكة توضع على مائدتهم » .

ـ وهل كان يعنى بهذا ، أن اعدادهم لهذه السمكة يعنى ضمنا زيادة فى التكريم والمجاملة للضيوف ؟

ولم يعقب جاى بشىء . بل قدم لى كأسا من الشمبانيا المثلجة . وبعد قليل سمعته يقول لى ، دون أن يرفع عينيه عما كان بين يديه :

ـ انك شاب هادىء بارد الطبع . ألا يعنيك شىء من أمر صديقك كافنديش ؟

ولما لم أعقب بشىء ، حدجنى بعينيه الدقيقتين مستطردا :

ـ اننى أدير عملا كبيرا .

ـ أعرف ذلك .

ـ انه أكبر وأضخم مما تعرف وتتصور . ان تاجر السمك يبيع سمكا ، وتاجر الخمور يبيع شمبانيا ، والفرنسيون لا يعارضون فى أن تباع خمورهم خارج فرنسا . أليس هذا هو الواقع ؟

ـ بلى . ذاك هو واقع الامر .

ـ وأنت .. وأنت تبيع الولاء .. وأنا لا أفعل شيئا من هذا القبيل ، وما كان لى أن أفعله .. اننى أبيع الناس .. »

ـ مثل ايخمان ؟

ـ لست أحب هذا الاسلوب من المزاح . اننى أتعامل فى هذا الطراز من الرجال الموهوبين الذين يغيرون من يستخدمهم بمحض ارادتهم » .

اذن فهذا هو جاى . هذا هو ايخلهاور باسمه الالمانى الذى يتسمى بجاى . فقلت له معقبا :

ـ انك كشاف موهوب للكشف عن المواهب لحساب الكرملين ؟

والتزم جاى جانب الصمت ، ولعله كان يفكر فيما سمعه منى .

وقطع علينا حبل السكون المخيم ، رنين آلة التليفون الموجودة بالمطبخ · ورفع السماعة قائلا بعد أن استمع لمن يتحدث اليه : « دعه يتصل بى » · وبعد قليل واصل حديثه : « يمكنك أن تقول انني بالمنزل · انني لن أتفوه بكلمة ، يا صديقى · عليك بالمضى فيما اتفقنا عليه · أجل · هذا حسن · شكرا » ·

وبعد أن أشعلت سيجارة ، قررت أن أبدأ الحديث قائلا :

ـ ألم يحن الوقت بعد لنتحدث عن صلب الموضوع ؟

ـ عن ماذا ؟

ـ عن هذا السجين الذى هربت منه ·

ـ أو تعتقد أن لى يدا فى ذلك ؟

وعندئذ أقبل موريس بوثيقة قدمها الى جاى · وحاول أن أتبين شيئا عن مضمونها ، فتعذر على هذا · وكل ما استطعت أن أتبينه منها أنها صفحة من الورق بها حوالى ٥٠ كلمة محررة بالآلة الكاتبة · وانصرف موريس ، وتبعت جاى الى غرفة الجلوس ، حيث جلس عند ركن التليفزيون قائلا :

ـ هل أساءوا معاملتك فى وود جرين ؟

ـ انني لم أستطع أن أتحمل أكثر مما تحملته ·

ـ هل كان ما تعرضت له قاسيا الى هذا الحد ؟

ـ انني وطنت نفسى على التعرض لأسوأ الظروف ·

ـ لقد كان هنالك من ألوان العذاب فى القرون الوسطى ما هو أشد تنكيلا · وفى هذا العصر تجاوزت أسلحة الدمار حد المعقول ·

ثم اعتدل فى مقعده الجلدى الكبير ليستطرد بعد أن لاحظ صمتى :

ـ ما أظنك بمصدق أن الدول الشيوعية ستنهار وأن هذا النظام الراسمالى سيواصل سيره قدما · لتكن رجلا موضوعى النظرة ، واسع الخبرة · كن عمليا وأنت تستعرض معى حقيقة الاوضاع السياسية · نبئنى ، ماذا بوسع الراسمالية ان تقدمه لنا ؟ ان مستعمراتها التى كانت تبيض لها ذهبا ، فى طريقها الى الزوال · فقد تنبهت الاوزة وتعلمت

أين تبيع نتاجها الذهبى • اللهم الا من بعض بلاد قليلة استطاعت فيها حكوماتها الرجعية أن تخمد حركاتها الاشتراكية ، بفضل مساندة القوات الفاشية التى يمدها الغرب بذهبه » •

وتأملنى ليتحقق من مدى تأثير حديثه فى نفسى • ثم استطرد قائلا :

ـ وتلك الدول الرأسمالية نفسها ، ماذا من حقيقة أمرها ؟ اضرابات تلو الاخرى ، وعقول سقيمة لا يعنيها من أمر زملائها فى البشرية شىء ، وفوضى ضاربة أطنابها تتحكم فيها أموال الرشاوى واتجاهات الانانية » •

وفى هذه اللحظة بالذات ، أدار مفتاح الراديو الى اذاعة أنباء وزارة الداخلية ، حيث كان قد حان وقت اذاعتها • وطرق سمعى صوت المذيع معلنا : « ان الشرطة تجد فى البحث عن رجل كان بالقرب من مسرح الجريمة » • وأعقب هذا اذاعة وصف تفصيلى لى • ووجدتنى أقول لجاى :

ـ دعنا من كل هذا • من قتل تشارلى كافنويش ؟

فنهض جاى عن مقعده ، واتجه صوب النافذة يتطلع منها • وأشار الى أن أتبعه الى حيث يقف • وتطلعت من النافذة لأجد سيارتى أجرة تقفان عبر الشارع • ثم قام جاى بتغيير موجة الراديو الى موجة اذاعة الشرطة ، التى علمنا منها بأن قوات الامن تنسق جهودها فى أثرى •

وسمعت جاى قائلا ، ردا على سؤالى :

ـ لقد قتلناه جميعا • أنت وأنا وهم •

وسمعنا أحد الرجال الثلاثة الذين كانوا يقفون فى الناحية الاخرى من الشارع يعلن لمن يوجه اليهم كلامه ، اننى متجه الى هناك فورا • عليكم بمراقبة الاسطح والشوارع الخلفية ، مع احكام حصارها - واقبضوا على كل من تلتقون به فى انتظار أوامر أخرى •

وكان الصوت صوت روس ، ثم عبر الرجال الثلاثة الشارع فى اتجاه المبنى •

واتجه الى التليفون الداخلى قائلا وهو يرفع السماعة :

- موريس ، لدينا زوار .

ثم ابتسم ابتسامة عريضة قبل أن يستطرد :

- دعهم يصعدون ، بعد أن تخبرهم بأننى معتقل فعلا .

وفتح موريس باب الغرفة لروس والشرطيين اللذين معه ، وتبادلنا جميعا التحية والمصافحة بالايدى . ولم يسبق لى أن سررت بلقاء روس من قبل . وقام روس بتفتيش جاى الذى نقل الى كارشلتون ، المبنى التابع لادارة روس والمستعمل فى اغراض غير معلومة . ولما أقبل جاى ليودعنى ، لاحظت أنه ارتدى حلة رمادية من صوف الموهير الفاخر .

وبعد أن سكنت الحركة وهدأت العاصفة ، قال لى روس فى لهجة رقيقة ، بخلاف ما ألفت منه : « والآن ، أظن أنك حصلت على ما يجب ألا تنتظر بعد شيئا ، وما لا يحتمل تلكؤ أو انتظار » .

وسرت به الى المطبخ قائلا : « هذا الطعام يجب أن يؤكل ساخنا »

فضحك روس قائلا : « أو كنت تتردد على هذا المكان ؟ »

فأجبته قائلا : « أجل . فقد كانت لى سابق معرفة بالطاهى »

- ٣١ -

كان الليل قد انتصف ، عندما وصلت الى مكتبى بشارع شارلوت وكان المكان أشبه شىء بخلية نحل نشاطا وحركة . وبعد أن سلمت أليس قائمة بالاسماء ، غادرت الغرفة لتتركنى مع جـــين التى انتهزت الفرصة لأفسد زينتها وأحمر شفتيها .

وكانوا قد ذهبوا بكل من ألقى القبض عليه الى كارشلتون ، ورؤى أنه يحسن ايداعهم فى معتقلات انفرادية ، للمصلحة العامة . وقامت الدنيا وقعدت ، وحددت الساعة السادسة صباحا لعقد اجتماع فى مقر شرطة اســـكتلنديارد . وكان رجال الشرطة فى أشــــد حالات القلق والاضطراب . غير أن الساعة ما وافت الثامنة صباحا ، حتى بدأت الامور أن تنجلى وتتخطى مرحلتها الخطرة . وكان موارى قد تمكن من اعتقال

دالبى بعد أن استعاد وعيه • وقد اتصل بنا فى الساعة الثامنة و ٩ دقائق صباحا ، من ليبهوك ، ليخطرنا بأنه ألقى القبض على رجل يدعى سوينسون ، ويسألنا أن نبعث بسيارة لاحضاره • ولاح لى أن سوينسون هذا ، هو الاسم الحقيقى لكوبلاى خان • وأمرت بقيام السيارة ، التى انتقلنا بها ، أنا وجين لتناول طعام أفطارنا •

وقالت لى جين ، ونحن جلوس الى مائدة الافطار بالمطعم ، « يالها من خطة • اننى لا أكاد أن أصدق شيئا مما جرى » •

ـ بل صدقى • وصدقى أيضا أننا لم نقتلع الشر من جذوره ! ولست أدرى أى الخطتين كان أكثر اثارة للدهشة ، دالبى الذى يعمل لحساب الآخرين • أم روس الذى سيطر على العملية التى أحكمت تضييق الخناق عليه ، وتمكنت من الايقاع به •

ـ وهل كان روس على علم بذلك عندما وافق على نقلك الى المنظمة التى يرأسها دالبى ؟

ـ لم يكن واثقا مما يجرى أو مما يقال • وهذا هو السبب فى تكليفه موراى بالتجسس على ما يجرى • فلما سمع بأمر ما كان فى نادى العرايا وتعرضى لالقاء القبض على ، ترك دالبى يفهم أنه يشك فى أمره• وتلك مخاطرة لا شك فيها • ولكنها كانت مخاطرة أنتجت أثرها ، عندما حفزت دالبى على أن يثبت اخلاصه ، بالتفانى فى عملية خطف رافن فى لبنان • وانى لأذكر الآن اننى رأيت روس فى المطار عند عودته من بيروت عقب لقائه بدالبى • أما الى أى مدى كان سلوك دالبى معارضا لرغبات جاى ، فهذا ما لن نستطيع له تحديدا ، لأن دالبى تعمد أن يقضى على كل من كان فى السيارة مع رافن كما تعلمين •

ـ اذن فلم يكن كارسويل بهذه الدرجة من الحمق التى كان يبدو بها ؟

ـ كلا . لقد كان أعمق من هذا غورا وأكثر حذقا . وما أن خشى روس على حياته ، حتى عمل على اخفائه فى مكان ما ، حتى اننى لم أعرف له مستقرا ولم يستطع تشارلى أن يهتدى اليه .

ـ اذا ما افترضنا أن جاى لن يعترف بشىء ، فقد يقوم كارسويل

بتقديم الأدلة عما وصلت اليه عملية « ابكريس » . وبالمناسبة ، هل « ابكريس » هذا شخصية اسطورية اغريقية ؟

ـ كلا . انها كلمة من ابتكار أحد رجال روس ، تعكس الحروف الاولى من جملة طويلة تعنى وصفا طبيا لما كانت هذه الجماعة ترتكبه بالمنزل رقم ٤٢ .

ـ ماذا فعلوا بك فى وود جرين .

ـ ان تنظيمهم لهذا الامر ، يدل على مدى ما بلغته عقليتهم الشريرة من تدبير واحكام . وهؤلاء القوم المارقون يعملون على أن يفقدوا الرجل الاحساس بوجوده والشعور بذاته . وانهم ليتحايلون حتى يجعلوا من المكان اقليما آخر بحرارته وبرودته . وهم يدأبون على الحاق الأذى بمن يقع تحت أيديهم ويضيقون عليه الخناق حتى يضيق بذاته كله ، ويعمدون الى حرمانه من كل شيء حتى من النوم حتى يفقد التحكم فى أعصابه ويصير ألعوبة وأداة طيعة بين أيديهم . وهم لا يتورعون على أن يزيفوا شخصيات السفراء وضباط الجيش فى دولة أخرى ، الى هذه الحيل التى تؤتى ثمارها لدى شخص بلغ هذا الحد من الانهيار والضعف .

ـ ترى ماذا كانوا سيفعلون بك لو لم يتيسر لك سبيل الهرب ؟

ـ الهرب ؟ لقد كنت أعرف الكثير عن حيلهم هذه وألاعيبهم حتى استطعت أن أصور لنفسى ما يقترب بى من حقيقة الوضع . ان الكثيرين ممن سبقونى الى هذا السجن قد أدخل فى روعهم أنهم فى بلاد أخرى غير انجلترا . ولم يكن ثمة من جدوى للتفكير فى الهرب من سجن تتخطى جدرانه لتجد نفسك خلف أسوار أمنع من الستار الحديدى ، وفى بلاد تبعد عن وطنك مئات الأميال . ومن هنا كان من العبث أن يفكر المرء فى الهرب ، بعد أن يلقى فى روعه هذا . وما كنت لأفكر فى الهرب لو لم أكن قد فطنت لحقيقة الوضع الذى أرادوا أن يشعرونى بغيره ، كما حدث وصارحنى بذلك الضابط المجرى المزعوم فى وجود السكرتير الثالث المزعوم للسفارة البريطانية ، من أننى ما دمت فى المجر ، وأنكرتنى بلدى بريطانيا ، فاننى سأحاكم طبقا

للقوانين المجرية • ومن هنا كان بدء تفكيري في الهرب ، لأنني رجحت أنني لو وقفت ، فسأهبط من جدران السـجن الى أرض بريطانية لأنني لم أتجاوز حي وود جرين والمنزل رقم ٤٢ . منزل الأشباح ان شئت أن تسميه » .

ـ وماذا بعد ؟

ـ ليس من بعد ما هو هام . ثمة بعض تفصيلات عن أساليبهم سأرويها لك كلما تذكرت منها شيئا ، كتلك التى جرت وتعرضت لها فى الجزيرة . غير أنك قد أحطت بما يمكن أن أسميه صلب الموضوع . ولعلك تدركين أننى جد متعب ، وأن مجرد استعادة هذه السـاعات والايام المؤلمة يضاعف من شعوري بالاجهاد . ولا تنسى أن من عمـد ما يقولون عليه هو هذا الاجهاد العقلي والبدني الذى يصيرون ضحاياهم اليه • انهم يعتمدون في أساليبهم على وسائل طبية اكلينيكية ، علاوه على الأخرى النفسية . ان العملية أكثر تعقيدا مما قد يخيل اليك ، ومما يمكن ايضاحه فى لقـاء أو اثنين أو أكثر من ذلك . انها عملية متشعبة متجددة النواحى لا تدخر وسعا فى الالتجاء الى كل الوسائل لتحقيق الغاية المنشودة ـ ألا وهى اصلاح الفكر التى يطلقون عليها فى تعبيرهم « غسيل العقول » .

وأمرت لنا بقدحين آخرين من القهوة • ونهضت لأبتـاع نسخة من صحيفة الجارديان . وكانت الصحف قد بدأت تنشر الكثير عن مقتل تشارلى كافنديس • وسمعت جين تقول لى :

ـ سمعت من موراى انه كان صديقا مقربا الى نفسك .

ـ لقد كان صديقا بحق . وكان حريصا على سلامتى .

ـ ومن كان له مصلحة فى قتله ؟ أكان ذلك لأنه كان صـديقك ويعمل على مساعدتك ؟

ـ كلا . ان الامر كان بخلاف ما تظنين . انها مأسـاة . فقد سبق له أن أعارنى بعض الثياب ومن بينها معطف واق من المطر . وبعد أن أصبحت فى غنى عن المعطف أعـدته اليه عندما كنا بمقهى فورتيس . فارتداه فى عودته الى منزله . ومن هنا ترين أن الامر لم

يكن بأكثر من خطأ مؤسف ، نتيجة لأن الجانى اعتقد أنه المقصود بالقتل أى الشخص المكلف بقتله وهو أنا .

ـ ومن الذى دبر قتلك ؟

ـ احد من يعملون لحساب جاى • وسنهتدى اليه •

ـ ألم يكن جاى هو الذى دبر ذلك ؟

ـ كلا . ان هذا لم يكن من تدبيره . بل انه بمجرد أن علم بذلك ، أسرع الى دالبى ، حيث وجدته هناك •

ـ سؤال آخر .

ـ هات ما عندك •

ـ لماذا استسلم جاى بكل سهولة عندما قدم روس لالقاء القبض عليه . ان هذا لم يكن متوقعا منه .

ـ لعله كان يأمل فى مخرج أو كان يعول على مساعدة دالبى له . أم لعله تفسير آخر ستكشف لنا الايام عنه .

ـ هيا بنا نعود أدراجنا قبل أن تثور أليس .

ـ لا عليك منها . اننى رئيس المنظمة .

ـ ٣٢ ـ

وعدت لمكتبى لأجد البرقيات قد انهالت من كل حدب وصوب . من واشنطون ومن كلكتاو ومن هونج‌كونج . وقامت أليس باتخاذ اللازم حيالها ، الا من القليل الذى كانت بحاجة الى تلقى ارشاداتى فيه . وكان موارى قد استقل طائرة هيليكوبتر الى جرانتهام التى عاد منها بتشيكو • وبدا عليلا عندما زرته بالمستشفى العســـكرى بميلبانك • وعين روس حارسين لتشيكو • وكل ما أدلى به تشيكو من معلومات ، أنه تعرف « على ابن عمه بالفيلم الذى سبق أن عرض علينا فى وزارة الحرب • وأنه بدلا من أن يخبر بذلك روس ، سافر لزيارة هـــذا الرجل وليس من شك فى أن الرجل كان ضمن عصابة ابكريس .

واتضح لى أن بينتر ، الذى اشترك معنا فى عملية اختطاف رافن بلبنان ، لم يكن غير طبيب نفسى له قدره . وأشركته فى غرفة مع كارسويل فى الطابق الاعلى بمبنى شارع شارلوت لعلنا أن نستفيد من معلوماتهما فى حالة فشلنا فى الحصول على اعتراف من جاى .

ولم أستطع أن أقضى ليلة فى نوم هادىء ، الا فى يوم الخميس ، حيث اقتضت الملابسات أن أعول فيما سبق من ليالى على القهـوة والسجاير والاسبيرين . وما أن سمحت لى الظروف ، حتى تناولت منوما لأحظى بليلة هادئة . ولم أستيقظ الا فى منتصف نهار اليوم التالى . ونهضت لأعد نفسى لمقابلة هامة بوزارة الحرب فى تمام الساعة الثالثة مساء .

ووجدت اليس وروس هنـاك فى انتظارى . وقدمنى روس الى الشخصية الهامة الذى نعتنى بأننى « بطل الساعة » وقدم الى سيجارة قام باشعالها . وأردف يشكر ثلاثتنا ـ روس وأليس وأنا . ولكننى أدركت أن ثمة أكثر من مجرد تقديم الشكر لنا ، مبرر لهذا اللقاء . وتأكدت من ذلك ، عندما بدأ الرجل يتحدث قائلا :

« ان مستر روس يتوق الى أن تسمع ذلك منى .. » وحذرت ماكان بسبيل أن يقوله لى . لقد عهد لروس بادارة منظمة شارع شارلوت . ولقد كانت هذه اللحظة المناسبة فعلا بعد كل ما قام به روس فى سبيل القضاء على جماعة « ابكريس » . ولكن الحديث دار دورة أخـرى ، بخلاف ما خيل الى . ان روس لن يتولى رئاسة منظمتنـا بشـارع شارلوت ان الغرض من دعوتى لهذه الزيارة كان لايضاح بعض الامور لى ! أولها ثقتهم التامة فى ، والرغبة فى ازاحة الغبار عن بعض مواقف لروس .

وقد رغبت هذه الشخصية العملية العسكرية ، التى رأيتهـا فى الصور الفوتوغرافية جنبا الى جنب مع تشرشل وأيزينهاور وغيرهما من علية القـوم ، فى أن تسـمع منى شـخصيا كيف هـربت من بيت وودجرين . وسردت على مسامعه كل ما كان من أمرى وكان لا يتمالك نفسه من آن لآخر ، مبديا اعجابه حينا ، ودهشته حينا آخر .

ونهض روس بعد شعوره بانتهاء المقابلة الى الباب يفتحه لتخرج أليس منه ، فانتهزت الفرصة واتكأت على المكتب الفخم قائلا : « متى ستلقون القبض على هنرى ؟ » فأسقط فى يد الرجل العظيم ، ونهض مستديرا حول مكتبه ليلتقى بروس الذى عاد من حيث كان عند الباب، ليشترك معه فى التحديق فى وجهى دهشة وعجبا . وأخيرا قال لى الرجل العسكرى العالى القدر ، مقتربا بوجهه من وجهى ، « كان يجب أن أغضب منك . هل تملى على واجبى فيما يجب على من تعقب أعداء الملكة ؟ »

ـ اننى لا أملى على أحد ما يجب أن يفعل . وانه ليسرنى أن أتبين أنك غضبت لسؤالى .

وفتح العسكرى الكبير أحد أدراج مكتبه ليخرج منه ملفا أخضر مكتوبا على غلافه اسم « هنرى » ، يحوى كل ما جمع من معلومات عن الرجل الذى تحدث تليفونيا الى جاى عندما كنا بالمطبخ . وكان بالملف مذكرة بخط يد رئيس الوزراء ، والتقرير المقدم منى ، وتقرير مطول من روس . وبعد أن فرغ الرجل العظيم من اطلاعى على ما بالملف قال :

ـ اننا لا نقل عن غيرنا رغبة فى الانتهاء من هذا الموضوع واقتلاعه من جذوره . غير أن ما تحت أيدينا من أدلة لا يمكننا من ذلك ، كما ترى .

ـ مع احترامى لشخصك ياسيدى ، اسمح لى أن أقترح تسليم هذا الملف لذوى الشأن . ان هذا التقرير المقدم منى كان مرفوعا لمجلس الوزراء . ولم يكن من حقك أو من حق الكولونيل روس أن تفردا له ملفا ، أو تعلقا عليه . ان دائرة نشاط المذكور لا تتجاوز نطاق مجلس الوزراء . اننى سأتسلم منك هذا الملف الخطير الآن ، راجيا أن تعتبر كل ما ورد به من الاسرار العليا ، أسرار القمة يا سيدى » .

ولم يكن هذا منى عن شك فى نوايا الرجل العسكرى العالى القدر، ولا خشية أن يحمى « هنرى » ، ولكننى كنت أرمى بذلك أن يوضع الملف بين يد من يعمل باخلاص على استيفائه .

ولم يعارض الرجل العظيم اقتراحي ، بل سلمني الملف ، مع كأس من براندى هينيسي المعتق ، تحية وتقديرا ٠

وانطلقنا بالسيارة ـ أليس وأنا ـ الى شارع شارلوت . والتزمنا الصمت ، يفكر كل منا في معقبات الموقف وتطوراته . ولما اقتربنا من وجهتنا سمعت أليس تصارحني بما كان يجول بخاطرها قائلة ، «ماكان دالبي ليجرؤ على محاولة شيء من هذا القبيل » . وكانت في صوتها رنة اعجاب ٠ فسلمتها الملف قائلا : « رقمي هذا الملف ، وأودعيه درج مكتبي . وبعد ظهر هذا اليوم ، أقبلت أليس تحمل الملفين الآخرين اللذين كانا بسيارة ووترمان ٠ ان أليس لا يفوتها شيء ٠

واتصل بي روس في المساء تليفونيا ، قائلا انه يجب أن نتقابل بشأن جاي ٠ وعقد اجتماع مني ومن كارسويل ومن بيتر ومن روس ٠ وقد انتهى هذا المؤتمر الى ما كان يجب أن ينتهي اليه ، من تقاضي جاي ١٦٠٫٠٠٠ جنيها أتعابا له ٠ ومن انقلاب سيارة « جنسين » براكبها الوحيد في يوم السبب بتجاوزها السرعة المعقولة ٠ وكان راكبها مستر دالبي الذي أثبت الكشف الطبي أن وفاته كانت نتيجة لاصطدام السيارة بالحاجز وانقلابها ٠

وكان أمامنا الكثير من الاعمال التي تتصل بموضوعنا هذا ٠ ومن ذلك ، الطلب الذي تقدم به كوبلاي خان ، من وود جرين ، لمنحه الحصانة الدبلوماسية ، والذي رفض لاعتبارات كثيرة ، وانبنى على رفضه الاستمرار في اتخاذ الاجراءات القانونية ضده ٠ وكان على أن اشكر لبرت عرضه ببرقيته التي تسلمتها في الجزيرة ٠ كما كان على أن أسدد لألف كيتنج دينه ٠

وفي يوم الثلاثاء ، استقبلت زائرا ، هو البريجادير الامريكي من توكوى ٠ وكان يحمل معه صندوقين من الورق المقوى ٠ ومن الصندوقين أخرج لوحا من الخشب يبلغ الستة أقدام طولا وفي طرفيه مصباحين مما يوضع في مؤخرة السيارات ٠ وبهذين المصباحين المثبتين على هذا اللوح الخشبي الموضوع في مؤخرة دراجة بخارية ، خيل الى

اننى أتبع سيارة ليلة القبض على فى توكوى • وبعد أن تم لدالبى ما أراد من استدراجى ، عمل على قتل الشاهد الوحيد ، وألقى به فى البحر ، ثم ألقى بالدراجة البخارية بعد مسافة قصيرة ، وهو يأمل أنهم سيكتشفون كل شيء وأن وجودى بالقـــرب من مكان الحادث سيضعنى موضع الاتهام • وكان أن ألقى الامريكيون القبض على فى الظروف التى أوضحتها • ثم تدخل جاى برجاله ليخطر الامريكيين بأن البريطانيين يطالبون بتسليمى اليهم • وهذا ما تم لجاى الذى نقلنى الى المملـكة المتحدة •

وقدرت لهذا الضابط ما قام به • وشعرت أنه كان يريد أن يقدم الى خدمة بالكشف عما غمض من أمور • وأحطته علما بمقتل دالبى ، ولم يدهش لذلك أو يفاجأ به • ولم يعلق بأكثر من دالبى قد تأثر بدعايات الحمر ، مبديا أسفه لذلك ، أكثر من أسفه لمقتله •

أما عن « ملف هنرى » فلم يزد عليه شيء جديد • ولم يستجد من الامور ما هو جدير بأن يضاف الى محتوياته • وكان لكل نظرياته فى هذا الموضوع • وقالت جين فى ذلك أنه لو قـدر لنـــا أن نتحقق من شخصية هنرى ، فسيتضح لنا أنه أحد أقرباء تشكيف •

وكنت ألتقى بجاى فى المؤتمرات الشهرية التى أجتمع فيها بروس، لنعد تقريرنا الدورى لمخابرات الجيش • وكنت أراه ســـعيدا ، بادى الكفاءة والمقدرة •

وكنت كلما أردت مقابلته ، أجده فى الميرابل • وفى صباح السبت الماضى التقيت به مصادفة فى الليدز • ودعانى لتناول العشاء معه أنا وجين ، واعداد الطعام بنفسه لنا • وكنت أحب أن ألبى دعوته ، ولكننى لا أظن أننى سأفعل هذا ، لأنه ليس من الحكمة الاكثار من الاصدقاء فى مثل عملى هذا •

تلك هى القصة التى انتهت بفشل جماعة « ابكريس » •

وتلك هى تفصيلات نهاية هذه الجماعة وخيبة أملهم •

وهذا هو ما رويته للوزير المسئول ، الذى جلس يستمع الى فى انصات ولهفة ودهشة •

وتقدم لك خلال
الأيام القادمة

قصائد من برتولد برخت
ترجمة
د. عبد الغفار مكاوى

قلب ضعيف
ترجمة
د. سامى الدروبى

الاستعمار الجديد
بقلم
عبد الفتاح أبو الفضل

ملامح وجريئة فى المسرح الإفريقى
بقلم
د. على شلش

الكرة ورأس الرجل
بقلم
محمد حافظ رجب

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة

العدد القادم

حسناء الغابة

ترجمة حسين القباني

دار الكاتب العربي
للطباعة والنشر

تلتقي بالقارئ في
طريق المعرفة والثقافة

فتصدر السلاسل
الجديدة الآتية

من الأدب الشعبي

• مكتبة
فلسطين

• كتاباب
جدي

• دراسات آسيوية وأف

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة